

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ١٤٥



تفسير

القرآن الكريم

سورة الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

شغل الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

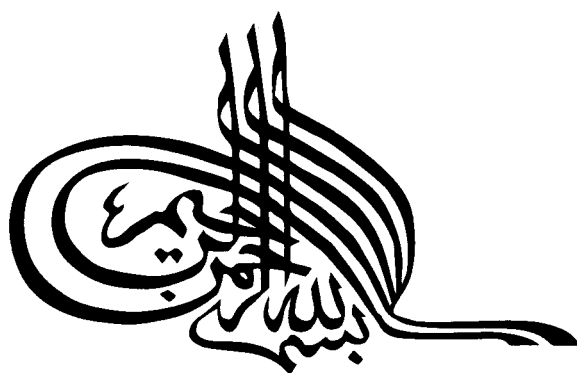
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٥)

تفسير
القرآن الكريم
سورة النخرفة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٤٥٢
١٨١٥٢



© مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة الزخرف. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦ هـ

١٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٥)

ردمك: ١ - ٤٨ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - سورة الزخرف - تفسير.

أ - العنوان

ديوي: ٢٢٧.٦

١٤٣٦/٧٨٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٠

ردمك: ١ - ٤٨ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

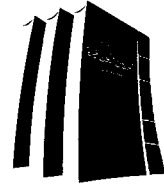
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com

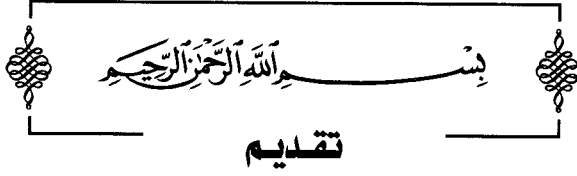


الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سويف ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



• • • • •

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَمِنْ الدَّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُسَجَّلَةِ صَوْتِيًّا، وَالَّتِي كَانَ يَعْقِدُهَا صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ الْوَالِدُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي جَامِعِهِ بِمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ أَثْنَاءَ الْإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ؛ حَلَقَاتٍ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَتْ بِدَايَتِهَا مِنْ سُورَةِ النُّورِ وَمَا بَعْدَهَا؛ حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۖ﴾.

وَقَدْ اعْتَمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِهِ لِتِلْكَ السُّورِ كِتَابًا بَيْنَ يَدَيِ الطُّلَابِ هُوَ (تَفْسِيرُ الْجَلَالَيْنِ) لِلْعَلَّامَةِ جَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَحَلِّيِّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)^(١)، وَالْعَلَّامَةُ جَلَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حُسن المحاضرة (١/٤٤٣).

ابن سابق الدين الحُضَيْرِيُّ السُّيُوطِيُّ، المُتَوَفَّى سنة (٩١١هـ)^(١). تَغَمَّدَهُمَا اللهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَسْكَنَهُمَا فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَجَزَاهُمَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وَسَعِيًّا - بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى - لَتَعْمِيمِ النَّفْعِ بِتِلْكَ الْجُهُودِ الْمُبَارَكَةِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ بِأَشْرِ الْقِسْمِ الْعِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ وَاجِبَاتِهِ فِي شَرَفِ الْإِعْدَادِ وَالتَّجْهِيزِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ لِإِخْرَاجِ ذَلِكَ الثَّرَاثِ الْعِلْمِيِّ؛ إِنْفَادًا لِلْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي قَرَّرَهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا الشَّأْنِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ نَافِعًا لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمُثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

الْقِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

٢٠ مُجَادَى الْآخِرَةِ ١٤٣٦ هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الزخرف

• • • • •

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنْ أَهَمِّ
وَاجِبَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْرِفُوا مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يُفْهَمْ
مَعْنَاهُ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ وَلَا يَفْهَمْ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ
عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] أَيُّ: إِلَّا قِرَاءَةً،
فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ أُمِّيِينَ.

وَالْقُرْآنُ يُفَسَّرُ بِالْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَبِالسُّنَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَبِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ،
وَلَا سِيَّمَا الْمَشْهُورُونَ مِنْهُمْ بِعِلْمِ التَّفْسِيرِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا قَالَهُ كِبَارُ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ
التَّفْسِيرِ، هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي مَشَى عَلَيْهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَأَمَّا التَّفْسِيرُ بِالرَّأْيِ فَمِنْهُمْ الْمُخْطِئُ وَمِنْهُمْ الْمُصِيبُ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ
أَنْ يُفَسِّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، بِمَعْنَى: أَنْ يُحَوِّلَ الْقُرْآنَ إِلَى رَأْيِهِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ
بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، مِثَالُ ذَلِكَ: الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿يَبْلُ
يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] بِأَمْتِهِمَا النِّعْمَةُ، فَهَؤُلَاءِ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا
الْمَعْنَى غَيْرُ الْمُرَادِ قَطْعًا، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]،
يَعْنِي: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فَإِنَّ هَذَا مُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ
عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَمِنْ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هُؤُلَاءِ نَقُولُ: إِنَّهُمْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِمْ، أَيْ: حَوَّلُوا الْقُرْآنَ إِلَى رَأْيِهِمْ، وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِمُقْتَضَى الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ حَقِيقَةً شَرْعِيَّةً فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ.

وَقَدْ سَبَقَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ أَوَّلَ مَا بَدَأْنَا فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، فَلْتَكُنْ مَرْجِعًا لَكُمْ، يُفَسِّرُ الْقُرْآنُ أَوَّلًا بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ بِالسُّنَّةِ، ثُمَّ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوْا بِالتَّفْسِيرِ، كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي أَخَذَ التَّفْسِيرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَأُقَدِّمُ فِي بَدَايَةِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ بِمُقَدِّمَاتٍ:

١ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، مَا عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيهِ؟

الْجَوَابُ: عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ حَقِيقَةٌ، تَكَلَّمَ بِهِ حَرْفِيًّا، وَأَرَادَ مَعْنَاهُ حَسَبَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وَهَذَا الْقُرْآنُ يَنْزِلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] أَيْ: شَيْئًا فَشَيْئًا حَسَبَمَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي وَقْتِ نَزُولِهِ.

٢ - أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهِ الْأَوَّلُ: مَا لَهُ سَبَبٌ.

وَالثَّانِي: مَا لَا سَبَبَ لَهُ.

فَالْأَوَّلُ: مَا لَهُ سَبَبٌ؛ أَيْ: بِسَبَبِ حَادِثَةٍ وَقَعَتْ فَتَزَلْ فِيهَا.

وَمِنَ الصَّوَابِطِ فِي هَذَا: أَنَّ كُلَّ آيَةٍ فِيهَا ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ فَإِنَّهَا لَسَبَبٌ، يَسْأَلُونَكَ عَنْ كَذَا، هَذَا سَبَبٌ، فَكُلَّمَا رَأَيْتَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَةً مُصَدَّرَةً بِكَلِمَةِ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾

فَإِنَّهَا نَزَلَتْ لِسَبَبٍ، وَقَدْ لَا يُذَكَّرُ فِيهَا ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ حَسْبَا ذِكْرٍ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ.
وَإِذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ لِسَبَبٍ: فَهَلْ تَخْتَصُّ بِذَلِكَ السَّبَبِ أَوْ تَكُونُ عَامَّةً لَهُ وَلِمَا
يُشَارِكُهُ فِي الْعِلَّةِ؟

الجواب: تَكُونُ عَامَّةً لَهُ وَلِمَا يُشَارِكُهُ فِي الْعِلَّةِ؛ وَهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ:
الْعِبَرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

فَمَثَلًا: أَوَّلُ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ رَجُلٍ مُعَيَّنٍ - أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ -،
فَهَلْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْحُكْمَ خَاصٌّ بِهِ. أَوْ نَقُولُ: إِنَّهُ عَامٌّ لَهُ وَلِمَنْ يُشَارِكُهُ فِي الْمَعْنَى؟
الجواب الثاني؛ فَكُلُّ مَنْ ظَاهَرَ مِنْ أَمْرَاتِهِ فَلَهُ حُكْمُ ظَهَارِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ
رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ تُفِيدُكَ فِي اسْتِعْمَالِ الاسْتِدْلَالِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنَّ الْأَصْلَ
هُوَ الْعُمُومُ.

٣- الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَهُ خَصَائِصُ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَمَسُّهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ؛ يَعْنِي: أَنَّ الْمُحَدِّثَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ
يَمَسَّ الْمُصْحَفَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا كَتَبَهُ لَعَمْرٍو بَن
حَزْمٍ: «أَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنُ إِلَّا طَاهِرٌ»^(١) أَيُّ: طَاهِرٌ مِنَ الْحَدَثِ؛ لِأَنَّ الطَّهَارَةَ مِنَ
الْحَدَثِ تُسَمَّى طَهَارَةً، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالتَّيْمُمِ: ﴿مَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وَاسْتَنْتَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الصَّغَارَ غَيْرَ الْمُكَلَّفِينَ، فَقَالَ: هُمْ أَنْ يَمْسُوا

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ (١/١٩٩)، وَالدَّارِمِيُّ فِي سَنَنِهِ (٢٣١٢)، وَالدَّارِقُطْنِيُّ (١/١٢٢).

المُصَحَّفَ بِدُونِ وُضُوءٍ؛ لَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ.

وَفِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ نَظَرٌ؛ لَأَنَّا لَوْ قُلْنَا بِهَذَا لَقُلْنَا: يَجُوزُ هُؤُلَاءِ الصَّغَارِ أَنْ يُصَلُّوا بِغَيْرِ طَهَارَةٍ. وَلَا قَائِلٌ بِهِ فِيمَا أَعْلَمُ، فَعَلَى هَذَا فَلَا بُدَّ مِنَ الطَّهَارَةِ حَتَّى لِلصَّغَارِ، لَكِنْ مَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى مَسِّهِ بِدُونِ طَهَارَةٍ كَأَلْوَابِ الصَّغَارِ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ بِهَا فِي الْمَدَارِسِ، فَهُؤُلَاءِ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى وُضُوءٍ؛ لَأَنَّا لَوْ كَلَّفْنَاهُمْ بِذَلِكَ لَشَقَّ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَحِلُّ لِلْجُنُبِ أَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ آيَةً فَأَكْثَرَ حَتَّى يَغْتَسِلَ، فَإِذَا كَانَ عَلَى الْإِنْسَانِ جَنَابَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ - آيَةً فَأَكْثَرَ - إِلَّا إِذَا اغْتَسَلَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ أَصْحَابَهُ الْقُرْآنَ مَا لَمْ يَكُنْ جُنُبًا، أَوْ قَالَ: «مَا لَمْ نَكُنْ جُنُبًا»^(١).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ لِلْجُنُبِ أَنْ يَقْرَأَ آيَةً لَا لِقَصْدِ الْقُرْآنِ وَلَكِنْ لِأَنَّهَا آيَةٌ دُعَاءٍ مَثَلًا؛ مِثْلُ: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً»؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، يَجُوزُ لَهُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قِرَاءَةِ الْحَائِضِ الْقُرْآنَ؟

فَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْحَائِضَ لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهَا كَالْجُنُبِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: لَهَا أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي السُّنَّةِ دَلِيلٌ صَرِيحٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في الجنب يقرأ القرآن، رقم (٢٢٩)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنبًا، رقم (١٤٦)، والإمام أحمد (١/٨٤)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَمْنَعُ الْحَائِضُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَتْ الْحَائِضُ لَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَبَيَّنَ ذَلِكَ؛ لَكثْرَةُ وَقُوعِ الْحَيْضِ وَاحْتِيَاجِ النِّسَاءِ إِلَى بَيَانِ الْحُكْمِ، فَلَمَّا لَمْ يَرِدْ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فَالْأَصْلُ الْجَوَازُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ الذَّكْرِ، وَالْحَائِضُ لَا تُمْنَعُ مِنْهُ.

وعندي: أَنَّ الْحَائِضَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِحَاجَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ:

فَالْحَاجَةُ كَأَن تَقْرَأَ وَرَدَهَا مِنَ الْقُرْآنِ؛ مِثْلُ: آيَةِ الْكُرْسِيِّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، أَوْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ لثَلَاثَ تَنَسَّاهُ، فَهَذِهِ حَاجَةٌ أَيْضًا.

ولمصلحةٍ مِثْلُ: أَن تُقَرِّئَ ابْنَتَهَا أَوْ طِفْلَهَا الْقُرْآنَ؛ أَيْ: تُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي الْمَنْعِ، وَكَانَتِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا اخْتِمَالًا؛ فَالاحتياطُ أَوْلَى. إذن: فَالْحُكْمُ الْآنَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ: أَنَّ لَهَا أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ لِحَاجَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ؛ لِعَدَمِ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ عَلَى مَنَعِهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْحَائِضُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِمَصْلَحَةٍ أَوْ حَاجَةٍ، هَلْ تَمَسُّ الْقُرْآنَ؟ فَالْجَوَابُ: لَا، الْقُرْآنُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا طَاهِرٌ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَنَعٌ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، مُمَكِّنٌ أَنْ تُمَسِكَ الْمُصْحَفَ بِقَفَازَيْنِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ثَوْبٍ.

٤ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَخْتَصُّ بِأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بَعْشَرُ أَمْثَالِهَا:

وَلَيْسَ ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي السُّنَّةِ، حَتَّى الْأَحَادِيثُ الْقُدْسِيَّةُ لَا يَتَّبَتُّ لَهَا ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هَذَا خَاصٌّ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هُنَاكَ أَوْرَاقٌ فِيهَا عَدَدُ حُرُوفِ الْمُصْحَفِ كَذَا وَكَذَا فَإِذَا قُرِئَتْ الْمُصْحَفَ كَامِلًا اضْرَبُهَا فِي عَشْرَةٍ، فَيَكُونُ لَكَ عَدَدُ الْحَسَنَاتِ كَذَا. فَمَا رَأَيْتُمْ؟

فَالْجَوَابُ: هَذَا كَذِبٌ، مَرَّ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْمٍ يُسَبِّحُونَ وَيَعُدُّونَ بِالْحَصَى، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ لَنْ تُحْصُوا أَعْمَالَكُمْ، أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ مُحْصَاةٌ لَكُمْ: مَكْتُوبَةٌ، لَكِنْ أَحْصُوا أَعْمَالَكُمْ السَّيِّئَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْهَا^(١). وَهَذَا حَقٌّ، فَكُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مُحَدَّثَةٌ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُضِيعَ أَجْرَ أَحَدٍ يَعْلَمُ عَدَدَ حُرُوفِ الْقُرْآنِ، وَيَعْلَمُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَلَنْ يَضِيعَ.

٥- القرآن الكريم يختص بالإعجاز:

أَيُّ: بَأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] أَيُّ: مُعِينًا.

وَلَيْسَ ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي أَيِّ كَلَامٍ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، بَلْ وَلَا بَعْشَرِ سُورٍ مِنْهُ، بَلْ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْهُ، بَلْ وَلَا بِآيَةٍ مِنْهُ:

فَالْقُرْآنُ كَامِلًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وَعَشْرُ سُورٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١١].

وَسُورَةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾

[يونس: ٣٨].

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (٢١٠).

وآيَةٌ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴿[الطور: ٣٣-٣٤] أَيْ: أَيِّ حَدِيثٍ.

وَقَدْ عَجَزَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ، أَيْ: عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ مِثْلَ الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ تَوَقَّرَتْ لَهُمْ أَسَالِيبُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَصَارَ الدَّاعِي لِمُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُمْ قَوِيًّا، فَلَمَّا كَانَ الدَّاعِي قَوِيًّا وَلَمْ يَوْجَدْ مَانِعٌ عِلْمُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ قِرَاءَتِهِ، وَلَا مِنْ تَكَرُّرِهِ، وَغَيْرُهُ يُمَلُّ مِنْ تَكَرُّرِهِ، وَيَمُجُّهُ السَّمْعُ، وَيَثْقُلُ عَلَى اللِّسَانِ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَا يَخْلُقُ مَعَ التَّرْدَادِ أَبَدًا، تَجِدُهُ طَرِيًّا كُلَّمَا قَرَأْتَهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ فَتَحَ عَلَيْكَ، وَكَانَ عِنْدَكَ نِيَّةٌ وَقَصْدٌ صَحِيحٌ فِي مَعْرِفَةِ الْمَعْنَى؛ فَكُلُّ قِرَاءَةٍ تَقْرُوهَا يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا مَعْنَى غَيْرِ الْأَوَّلِ؛ وَجَرَّبَ تَجِدُ، فَهَذَا الشَّيْءُ مَعْلُومٌ، لَكِنَّ هَذَا لِمَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَعْنَى، أَمَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ، لَكِنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِ كُلَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنَ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَكُنْ سَابِقًا.

٦- الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجَعَلَهُ مُبَارَكًا:

مُبَارَكًا فِي تَأْثِيرِهِ؛ مُبَارَكًا فِي ثَوَابِهِ؛ مُبَارَكًا فِي آثَارِهِ:

مُبَارَكًا فِي تَأْثِيرِهِ، يَعْنِي: أَنَّهُ يُؤَثِّرُ عَلَى الْقَلْبِ، وَيُلَيِّنُ الْقَلْبَ، وَيُكْسِبُهُ خَشْيَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] سُبْحَانَ اللَّهِ! فَهَذَا وَهُوَ جَبَلٌ حَصَى يَكُونُ خَاشِعًا ذَلِيلًا وَيَتَصَدَّعُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا بِالْكُمْ بِالْقَلْبِ؟! لَوْ كَانَ الْقَلْبُ حَيًّا

يَكُونُ مِنْ بَابٍ أُولَى؛ وَهَذَا قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْقَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَحَافِظٌ عَلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلَمَدٍ^(١)

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَشْكُونَ قَسْوَةَ قُلُوبِهِمْ الْيَوْمَ؛ لِأَسْبَابٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا، وَلَكِنْ إِذَا أَحْسَوْا بَقَسْوَةِ الْقَلْبِ فَعَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُلَيِّنَ قُلُوبَنَا. وَمِنْ جِهَةِ التَّأثيرِ أَيْضًا: فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رُقِيَّةٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَكُلِّ مَرَضٍ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ دَوَاءٌ لَهُ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ:

الْمَرَضُ الْقَلْبِيُّ؛ وَهُوَ الشُّبْهَةُ الَّتِي تَرِدُ عَلَى الْقُلُوبِ، أَوْ إِرَادَةُ الشُّوءِ، شِفَاؤُهَا الْقُرْآنُ.

الْمَرَضُ الْجِسْمِيُّ الْعُضْوِيُّ شِفَاؤُهُ الْقُرْآنُ؛ وَقَدْ نَزَلَ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَعْرَابِ، نَزَلُوا ضُيُوفًا، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبَ لَمْ يُضَيِّقُوا الصَّحَابَةَ، أَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمْ، فَتَنَحَّى الصَّحَابَةُ إِلَى جَانِبٍ، وَنَزَلُوا، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَى سَيِّدِ الْعَرَبِ عَقْرَبًا فَلَدَغَتْهُ وَآلَتْهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَعَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ؟ فَاتُّوا إِلَى الصَّحَابَةِ فَقَالُوا: إِنَّ سَيِّدَهُمْ لُدِغَ، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ قَارِيٍّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فِينَا قَارِيٌّ، وَلَكِنَّا لَنْ نَقْرَأَ عَلَيْهِ - عَلَى هَذَا الْمَرِيضِ - إِلَّا بِقَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ - لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبَ لَمْ يَكْرِموهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا حَقَّهُمْ مِنْهُمْ - قَالُوا: وَلَكُمُ ذَلِكَ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى هَذَا اللَّدِغِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةَ حَتَّى قَامَ كَأَنَّهُ تُشِيطُ مِنْ عِقَالٍ^(٢) وَالسَّمُّ قَدْ سَرَى فِي جِسْمِهِ، لَكِنْ زَالَ هَذَا وَطَابَ؛

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَهَذَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ.

وَمَا أَكْثَرَ مَا نَقَرَأُ الْفَاتِحَةَ وَغَيْرَ الْفَاتِحَةِ وَالْمَرِيضُ كَمَا هُوَ فِي مَرَضِهِ، فَلَمَّاذَا
وَالْآيَةُ وَاحِدَةٌ؟

الجواب: لَأَنَّهُ كَمَا يُقَالُ: السَّيْفُ بِضَارِبِهِ، فَالسَّيْفُ حَدِيدٌ قَاطِعٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ
مَعَ الْجَبَانِ لَا يَنْفَعُهُ، رُبَّمَا إِذَا رَأَى الْعَدُوَّ مُقْبِلًا عَلَيْهِ أَلْقَى بِالسَّيْفِ وَهَرَبَ، لَكِنْ إِذَا
كَانَ بِيَدِ الشُّجَاعِ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ وَيُدَافِعُ عَنِ نَفْسِهِ وَيَقْتُلُ عَدُوَّهُ.

وَلِهَذَا يُذَكِّرُ عَنْ رَجُلٍ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَكَانَ بِهِ
صَرَعٌ مِنَ الْجَنِّ، فَيَخْرُجُ الْجَنُّ، وَلَمَّا مَاتَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَادَ الْجَنِّيُّ، فَقَامَ رَجُلٌ يَقْرَأُ
عَلَى هَذَا الْمَصْرُوعِ بِمَا كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يَقْرَأُ بِهِ، وَلَكِنَّ الصَّارِعَ أَبَى أَنْ يَخْرُجَ، وَأَجَابَ
بَأَنَّ الْآيَةَ هِيَ الْآيَةُ وَالْقَارِئُ غَيْرُ الْقَارِئِ. فَلَا تَظُنَّ إِذَا لَمْ تَحِدْ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ مُبَاشَرَةً أَنَّ
الْقُرْآنَ غَيْرُ مُؤَثِّرٍ، وَلَكِنَّ الْقَارِئَ غَيْرُ مُؤَثِّرٍ.

وَمُبَارَكٌ فِي آثَارِهِ، فَقَدْ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا بِالْقُرْآنِ، أَيْ:
بِالْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ
بِهِ﴾ جَاهِدْهُمْ بِالْقُرْآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فَتَحُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا بِالْقُرْآنِ حِينَ كَانَ الْقُرْآنُ بِالْيَدِ الْيُمْنَى وَالسَّيْفُ بِالْيَدِ الْيُسْرَى.

وَالْآنَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِيَدِهَا الْقَانُونُ الْوَضْعِيُّ بَدَلًا عَنِ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّأَخُّرُ؛ فَالتَّأَخُّرُ وَالذُّلُّ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِسَبَبِ عَمَلٍ مَنْ
يَتَسَبَّبُونَ إِلَيْهَا، فَالذَّنْبُ -إِذَنْ- فِي تَأْخِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَيْسَ ذَنْبُ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ
ذَنْبُ الْمُسْلِمِينَ.

فَمِنْ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِذَنْ: أَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَالشَّاهِدُ مَا سَبَقَ لِسَلَفِنَا الصَّالِحِ.

وَهُوَ أَيْضًا مُبَارَكٌ فِي ثَوَابِهِ: فَالْحَرْفُ الْوَاحِدُ فِيهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بَعَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَا أَكْثَرَ حُرُوفَ الْقُرْآنِ!

وَهَذِهِ الْمُنَاسِبَةُ عَرَضَ عَلَيَّ فِي الرِّيَاضِ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي إِنْسَانٌ وَرَقَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا: الْإِعْجَازُ الْعَدَدِيُّ فِي الْقُرْآنِ، جَدُولٌ ذَكَرَ فِيهِ أَنَّ جَمِيعَ حُرُوفِ الْقُرْآنِ كُلُّهَا تَقْبَلُ الْقِسْمَةَ عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ إِذَا جُمِعَتْ، وَلَكِنْ هَذَا افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمُنَاقِضٌ لِلْوَاقِعِ، وَلَا يَجُوزُ تَدَاوُلُ هَذِهِ الْبَطَاقَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ بَحِثٌ تَكُونُ حُرُوفُهُ مُنْقَسِمَةً عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ، مَنْ يَقُولُ هَذَا؟! لَكِنَّهُ افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

ثُمَّ إِنَّ حُرُوفَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا تَنْقَسِمُ عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ مَعَ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ؛ فَمَثَلًا ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ «فَتَتَّبَتُوا» إِذِنْ اخْتَلَّتْ؛ أَتَتْ الثَّانِيَةَ بَدَلًا عَنِ الْبَاءِ «فَتَتَّبَتُوا» وَبَدَلًا عَنِ النُّونِ، فَاخْتَلَّتِ الْقِسْمَةُ.

كَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] اخْتَلَّتْ؛ زَادَ حَرْفٌ. لَكِنْ هُوَ لَا لِالْمَشْغُوفُونَ بِمَا يَدَّعُونَ أَنَّهُ ذِكَاةٌ، وَأَنَّهُمْ أَطَّلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي جَاءَ مِنْ أَجْلِ الْقُرْآنِ، فَهَلِ الْقُرْآنُ جَاءَ لِيُحْصِيَ النَّاسَ الْعَدَدَ وَيُقَسِّمُونَهُ عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ؟ لَا، وَاللَّهِ! وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ كَمَا يَقُولُونَ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُعْجَزَةً، فَهِيَ فَاشِلَةٌ بَاطِلَةٌ.

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُنبِّهَ عَلَى هَذَا لِأَنَّهُ رَبِّمَا تَشِيعُ؛ لِأَنَّ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهَا يُرِيدُ أَنْ يَطْبَعَ مِنْهَا الْمَلَائِينَ وَيُوزَّعَهَا عَلَى النَّاسِ، وَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. فَنَقُولُ: هَذَا غَلَطٌ، فَالْقُرْآنُ مَا نَزَلَ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَادَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، فَاثْبَتْهُوا لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تُنَشَّرُ، فَقَدْ تَكُونُ مِنْ مُلْحِدٍ كَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ فَاجِرٍ يُرِيدُ بِهَا صَدَّ النَّاسِ عَنِ الْمَعْنَى الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نَزَلَ الْقُرْآنُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمَا يُعْرَفُ بِالْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؟

فَالْجَوَابُ: الْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ نَوْعَانِ: نَوْعٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ، هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَهُوَ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَنَوْعٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ بِتَكْلُفٍ، وَرَبِّمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَصْلًا، فَهَذَا لَا يَجُوزُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِهِ، مِثَالُ الثَّانِي قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمَعْتَرُ الْحَيْنَ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْعِلْمِ، وَطَبَّقَ هَذَا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْقَمَرِ فَهَذَا لَا يَحِلُّ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، الْآيَةُ فِيهَا بَيَانُ الْحَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَهَذَا قَالَ ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ، فَالْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَكْلُفٌ لَا بَأْسَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ وَاسِعٌ.

وَمِمَّا يُنْكَرُ أَيْضًا مِمَّا يُقَالُ: الْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ؛ مَا يُسَمُّونَهُ بِالْإِعْجَازِ الْعَدَدِيِّ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْعَدَدِ: تِسْعَةَ عَشَرَ، هَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

أَوَّلًا: لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ مُخْتَلِفَةٌ، وَهُمْ يَقُولُونَ مِثْلًا: التَّاءُ تَكَرَّرَتْ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً إِذَا

قَسَمْتُهَا عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ انْقَسَمَتْ، اللَّامُ تَكَرَّرَتْ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً إِذَا قَسَمْتَهَا عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ انْقَسَمَتْ بِلَا كَسْرِ، هَكَذَا يَزْعُمُونَ وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

حَتَّى قَالَ لِي بَعْضُهُمْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] قَالَ: إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ (بَكَّةَ) مِنْ أَجْلِ أَنْ تُتِمَّ الْبَاءُ الْعَدَدَ الَّذِي يَنْقَسِمُ عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ.

وَالدَّلِيلُ: مَثَلًا فِي الْقُرْآنِ كَلِمَاتٌ فِيهَا قِرَاءَاتٌ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُّوا﴾ [النساء: ٩٤] فِيهَا قِرَاءَةٌ «فَتَثْبُتُوا» إِذِنْ: اخْتَلَّ الْعَدَدُ، صَارَ بَدَلُ النُّونِ (تَاءً)، وَبَدَلُ الْيَاءِ بَاءً.

كَذَلِكَ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وَفِي قِرَاءَةٍ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بِحَذْفِ الْأَلِفِ، فَتَقْصَبِ الْأَلِفُ، فَالْقَصْدُ أَنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَلَا يُجَوِّزُ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْإِعْجَازِ الْعَدَدِيِّ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلًا: لَيْسَ فِيهِ إِعْجَازٌ كَمَا قَالُوا.

وِثَانِيًا: الْقُرْآنُ مَا نَزَلَ عَلَى أَنَّهُ تَمَرِينٌ حِسَابِيٌّ، بَلْ نَزَلَ عَلَى أَنَّهُ مَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي أَطْلَقَ هَذِهِ الْبِدْعَةَ رَجُلٌ كَانَ يُنَكِّرُ الْقِسْمَ الثَّانِي مِنَ الشَّهَادَةِ، وَيَقُولُ: إِنَّ الشَّهَادَةَ فَقَطْ تَقْتَصِرُ عَلَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَهُوَ رَجُلٌ يُسَمَّى رَشَادًا، وَنَشَرَهَا فِيهَا سَبَقَ قَبْلَ سَنَوَاتٍ، وَلَكِنَّهُ قُتِلَ، قَتَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَيَّامُ الْآخِرَةُ وَجَدْتُ إِنْسَانًا مَعَهُ وَرَقَةٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ يُرِيدُ أَنْ

يَطْبَعَهَا عَلَى حِسَابِهِ الْخَاصِّ وَيُوزَّعُهَا بَيْنَ النَّاسِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا لَا يَجُوزُ، وَمَزَقْتُ
الْوَرَقَةَ الَّتِي أَعْطَانِي، وَقُلْتُ: يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا نَزَلَ لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ،
لَا لِمَتَحَانِ عُقُولِهِمْ بِالْعَدَدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ كَمَا تَقَدَّمَ: تُوجَدُ آيَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمْنَعُ
هَذَا التَّرْكِيبَ الَّذِي ذَكَرَ.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبَرُوا عَائِيَتِهِ﴾ [ص: ٢٩] أَيْ:
يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَيُرَدِّدُوهَا بِأَفْكَارِهِمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْمَعْنَى، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يَنْزَلْ
لِتِلَاوَتِهِ لَفْظًا فَقَطْ، بَلْ وَلِتَدَبُّرِ مَعْنَاهُ، وَلَا يُمَكِّنُ الْعَمَلُ بِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ، وَلَا يُمَكِّنُ
مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ إِلَّا بِتَدَبُّرِهِ.

إِذَنْ: فَالْتَفَكِيرُ فِي مَعْنَاهُ أَمْرٌ وَاجِبٌ، فَيَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ مَعْنَى الْقُرْآنِ كَمَا تَتَعَلَّمُ
مَعْنَى الْأَجْرُومِيَّةِ، وَهِيَ كِتَابٌ صَغِيرٌ فِي النَّحْوِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ
حَتَّى يَعْرِفَ مَعْنَاهُ، كَذَلِكَ أَيْضًا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَفِيدَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ
حَتَّى يَعْرِفَ مَعْنَاهُ، وَلَوْ أَنَّ هُنَاكَ كِتَابًا فِي الطَّبِّ مِنْ أَفْصَحِ الْكُتُبِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ
الْمَعْنَى فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُ.

إِذَنْ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى تَعْرِفَ مَعْنَاهُ.

وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» ^(١) وَهَذَا يَشْمَلُ التَّلْعُمَ
الْلَفْظِيَّ وَالتَّلْعُمَ الْمَعْنَوِيَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَذَّبَرُوا عَائِيَتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ هَذَا فَاقْرَأْ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ مَعَ التَّدَبُّرِ، وَاقْرَأْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ،
تَجِدُ الْفَرْقَ الْعَظِيمَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابَ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابِ خَيْرِكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، رَقْمُ (٥٠٢٧)،
مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَذَلِكَ أَحْكُم - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - عَلَى تَعْلُمِ مَعْنَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَاقْرَؤُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ الْمُوثُوقَةِ، واحذَرُوا الْكُتُبَ الَّتِي لَا يُعْرَفُ مَنْ أَلْفَهَا أَوِ الَّتِي عُرِفَ مَنْ أَلْفَهَا بِأَنَّهُ مُنْحَرِفٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ حَرَّفَ الْقُرْآنَ وَنَقَلَهُ إِلَى مَا يَعْتَقِدُهُ هُوَ، لَا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، فَاحذَرُوا، وَإِذَا لَمْ تَتَمَكَّنُوا مِنْ هَذَا فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ حَتَّى تَسْتَفِيدُوا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثَانِيًا: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ﴾ أَيُّ: يَتَعِظُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. وانظر الفرقَ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لِيَذَبَرُوا عَائِيَهُ﴾ حَيْثُ عَمَمَ فِيهَا، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ حَيْثُ خَصَّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ وَلَا يَتَعِظُ بِهِ إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِلَى مَنْ نَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ؟

فَالْجَوَابُ: نَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ، نُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ نَجِدْ فَبِالسُّنَّةِ، فَإِنْ لَمْ نَجِدْ فَبِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، وَلَا سِيَّامُ الْمُفَسِّرُونَ مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ نَجِدْ رَجَعْنَا إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ - الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمْ - كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ وَغَيْرِهِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

مِثَالُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آذَنَّاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٧) ثُمَّ مَا آذَنَّاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [الأنفطار: ١٧-١٩]، ﴿الْفَارِعَةُ﴾ (١) مَا الْفَارِعَةُ (٢) وَمَا آذَنَّاكَ مَا الْفَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ [الفارعة: ١-٤]، وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ.

مِثَالُهُ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿الْمُتْنَىٰ﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَسَرَّ ذَلِكَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا^(٢). فَفَسَّرَ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ؛ لِأَنَّ الرَّمْيَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ فَتَكَاً بِالنِّسْبَةِ لِلْأَسْلِحَةِ، وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا الرَّمْيُ هُوَ الْقُوَّةُ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ فِي الْأَوَّلِ يَرْمُونَ بِالسَّهَامِ بِالْقَوْسِ، وَالْآنَ يَرْمُونَ بِالصَّوَارِيخِ وَالْقَنَابِلِ.

فَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ» خَاصٌّ بِمَا كَانَ فِي عَهْدِهِ، بَلْ هِيَ عَامَّةٌ بِمَا يُحْدِثُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: نَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ بِالسُّنَّةِ، ثُمَّ بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَا نَعْدِلُ عَنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ إِلَى تَفْسِيرِ الْمُتَأَخِّرِينَ أَبَدًا، خُصُوصًا فِي الْعِبَادَاتِ، أَمَّا فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَحْدُثُ وَيَكُونُ فِي الْقُرْآنِ إِشَارَةٌ لَهَا فَهَذِهِ قَدْ لَا يَرِدُ عَنِ السَّلَفِ فِيهَا تَفْسِيرٌ، وَلَكِنْ تُفَسَّرُ حَسَبَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ مِنَ الْأُمُورِ الْكَوْنِيَّةِ الْفَضَائِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ تَكَلَّمْ فِيهَا الْمُتَأَخِّرُونَ، فَنَقُولُ: يُرْجَعُ إِلَى قَوْلِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذَا؛ لِأَنَّ السَّلَفَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ.

أَمَّا مَسَائِلُ الْعِبَادَةِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمَا أَشَبَّهَا؛ فَإِنَّهُ يُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: كِبَارُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ التَّابِعِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَمَرْتَبَتُهُمْ أَدْنَى بِكَثِيرٍ مِنْ مَرْتَبَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمامة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عتبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا تَعْلُمَهُ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَالْعَمَلُ بِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

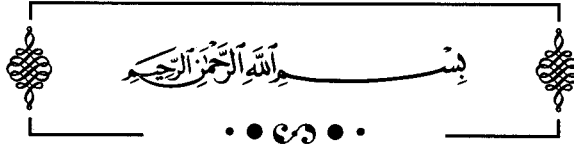
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَيُنْصِتُونَ لَهُ فَهَلْ لَهُمْ أَجْرُ الْقَارِئِ؟

الجواب: نعم، لَهُمْ أَجْرُ الْقَارِئِ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ وَلِذَلِكَ يُشْرَعُ لَهُمْ إِذَا سَجَدَ الْقَارِئُ سُجُودَ التَّلَاوَةِ أَنْ يَسْجُدُوا مَعَهُ، فَحُكِّمَهُمْ حُكْمُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ لِلْمُسْتَمِيعِينَ إِلَى التَّسْجِيلِ أَجْرُ الْقِرَاءَةِ؟

الجواب: لا، لَيْسَ لَهُمْ أَجْرُ الْقِرَاءَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا حِكَايَةُ صَوْتِ قَارِئٍ قَدْ يَكُونُ مَيِّتًا وَلَيْسَ قِرَاءَةً، وَهَذَا لَا يَحِلُّ أَنْ يُودَى الْأَذَانُ مِنْ مُسَجِّلٍ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَمَكِينَةِ، عِنْدَهُمْ مُسَجِّلٌ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الْأَذَانِ فَتَحُوا الْمُسَجِّلَ بِالْمُؤَذِّنِ، هَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ، وَلَا يَنْفَعُ.





❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

• • • • •

البِسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَلَهَا كَمَا أَنْزَلَ بَاقِيَ الْقُرْآنِ، فَهِيَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تَفْتَحُ بِهَا كُلُّ سُورَةٍ مِنَ الْفَاتِحَةِ إِلَى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] إِلَّا ﴿بَرَاءَةٌ﴾ فَإِنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ لِفَتْحِهَا.

وَلَيْسَتْ الْبِسْمَلَةُ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَلَا مِنَ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَعَلَى هَذَا فَلَا تُحْسَبُ مِنْ آيَاتِهَا، فَالْفَاتِحَةُ مَثَلًا افْتُتِحَتْ بِالْبِسْمَلَةِ، وَالْبِسْمَلَةُ لَيْسَتْ مِنْهَا، بَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقْلِلَةٌ، وَأَوَّلُ الْفَاتِحَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنَ اللَّهِ، قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ: حَمْدِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجْدُنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللَّهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ اللَّهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ^(١) فَبَدَأَ بِ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَجْهَرُ بِهَا - أَيْ: بِالْبَسْمَلَةِ - فِي الْقِرَاءَةِ الْجَهْرِيَّةِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ لَجْهَرَ بِهَا كَسَائِرِ آيَاتِهَا.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نِصْفَيْنِ، فَثَلَاثُ آيَاتٍ لِلَّهِ، وَثَلَاثُ آيَاتٍ لِلْعَبْدِ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنَهُمَا، فَالْثَلَاثُ الْآيَاتِ لِلَّهِ هِيَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ② ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ③ [الفاتحة: ٢-٤]، وَالثَلَاثُ الَّتِي لِلْعَبْدِ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ④ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ⑤ [الفاتحة: ٦-٧]، وَالْمُشْرَكَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ⑥ [الفاتحة: ٥]، فَتَجِدُ هَذِهِ الْمُشْرَكَةَ هِيَ النِّصْفُ، وَهِيَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ نِصْفَيْنِ، هِيَ النِّصْفُ مِنْ بَيْنِ سَبْعِ آيَاتٍ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نَحْنُ نَجِدُ فِي الْمَصْحَفِ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ قَدْ رُقِّمَتْ عَلَى أَنَّهَا مِنْ آيَاتِهَا، وَأَنَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ④ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ⑤ قَدْ جُعِلَتْ آيَةً وَاحِدَةً.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَكَأَنَّ الَّذِينَ طَبَعُوا الْمَصْحَفَ أَوَّلَ مَا طَبَعُوهُ، طَبَعُوهُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، وَاسْتَمَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ، عَلَى أَنِّي وَجَدْتُ مُصْحَفًا مَطْبُوعًا فِيهِ أَوَّلُ آيَةٍ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ①، وَالْآيَةُ السَّابِعَةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ⑤، وَالْبَسْمَلَةُ لَمْ تُرَقِّمْ، وَهَذَا هُوَ الْمُنَاطِقُ لِلصَّوَابِ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْآيَاتِ لَا تَكُونُ مُتَنَاسِبَةً فِي الطُّوْلِ وَالْقِصْرِ إِلَّا إِذَا قَسَمْنَا الْآيَةَ الْآخِرَةَ قِسْمَيْنِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ④ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ⑤ صَارَتْ الْآيَةُ هَذِهِ طَوِيلَةً بِالنِّسْبَةِ

لَبَقِيَّةِ الْآيَاتِ، فَلَا تَنَاسَبَ، فَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الْقَوْلُ الرَّاجِحُ الْمُتَعَيِّنُ أَنَّ أَوَّلَ الْفَاتِحَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَأَنَّ الْبَسْمَلَةَ لَيْسَتْ مِنْهَا كَسَائِرِ السُّورِ.

فَقِيلَ: الْبَسْمَلَةُ جَمْلَةٌ مَعْمُولٌ مَجْرُورٌ بِالْبَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ اسْمٍ مَجْرُورٍ بِالْبَاءِ فَإِنَّهُ مَعْمُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ مَحْذُوفٍ، وَلِهَذَا قَالَ النَّاطِمُ:

لَا بُدَّ لِلْجَارِ مِنَ التَّعْلُقِ بِفِعْلِ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوُ مُرْتَقِي

الْبَسْمَلَةُ مَعْمُولَةٌ لِعَامِلٍ مَحْذُوفٍ، وَالْقَاعِدَةُ: كُلُّ اسْمٍ مَجْرُورٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ، فَأَيْنَ عَامِلٍ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟

نَقُولُ: الْعَامِلُ مَحْذُوفٌ يُقَدَّرُ فِعْلاً مُتَأَخَّرًا مُنَاسِبًا لِلْمَقَامِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقْرَأَ فَأَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَدَّرِ الْعَامِلَ: (أَقْرَأُ)، فَالتَّقْدِيرُ (بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ).

وَلَوْ سَأَلْتُ: لِمَاذَا نُقَدِّرُهُ فِعْلاً وَلَمْ نُقَدِّرْهُ اسْمًا، فَنَقُولُ: (بِاسْمِ اللَّهِ قِرَاءَتِي)؟

فَالْجَوَابُ: الْأَصْلُ فِي الْعَمَلِ الْأَفْعَالُ؛ وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُ اسْمًا عَامِلًا إِلَّا بِشُرُوطٍ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ اسْمٍ يَكُونُ عَامِلًا إِلَّا بِشُرُوطٍ، لِمَاذَا قَدَرْنَاهُ مُتَأَخَّرًا وَلَمْ نَقُلْ: (أَقْرَأُ بِاسْمِ اللَّهِ)؟

الْجَوَابُ: لِفَائِدَتَيْنِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: التَّبَرُّكُ بِبِدْءَةِ الْكَلَامِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْحَضَرُ، يَعْنِي: بِاسْمِ اللَّهِ لَا بِاسْمِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ الْمَعْمُولُ عَلَى الْعَامِلِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْحَضَرِ، يَعْنِي: الْاِخْتِصَاصَ، فَكَأَنَّ الْقَارِئَ يَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ لَا بِاسْمِ غَيْرِهِ.

وقَدَّرْنَاهُ فِعْلًا مُنَاسِبًا؛ لِأَنَّهُ أَدُلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ؛ فَمَثَلًا هُنَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ، نَقُولُ:
التَّقْدِيرُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَا نَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَبْتَدِئُ؟ قُلْنَا: لِأَنَّ كَلِمَةَ (أَبْتَدِئُ)
صَالِحَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ يُبْتَدَأُ بِهِ، وَإِذَا قُلْتَ: (أَقْرَأُ) صَارَ خَاصًّا، وَهُوَ أَدُلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ،
هَذَا تَقْرِيرُ إِعْرَابٍ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كُلَّمَا أَتَيْتَ.

أَمَّا عِنْدَمَا يُقَدِّمُ الْغَدَاءَ فَتَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ، فَكَيْفَ نُقَدِّرُهُ؟ الْجَوَابُ: أَتَغْدِي،
أَوْ أَكُلُ الْغَدَاءَ؛ لِأَنَّهُ أَخْصَصَ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْرَبَ تَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ أَشْرَبُ. وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ
تَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ أَدْخُلُ. وَهَلُمَّ جَرًّا.

أَمَّا قَوْلُنَا: بِاسْمِ اللَّهِ. فَاَلْمُرَادُ: بِكُلِّ اسْمِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الْعُمُومِ؛ لِأَنَّ الْمَفْرَدَ
إِذَا أُضِيفَ صَارَ فِي الْعُمُومِ. أَيُّ: أَبْتَدِئُ بِكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ.
وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ أَيُّ: ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ.

وقوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾ أَيُّ: ذُو الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].



الآية (١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴾ ﴿ حَم ﴾ [الزخرف: ١].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): [اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ].

﴿ حَم ﴾ هَذَانِ حَرْفَانِ هِجَائِيَّانِ؛ أَحَدُهُمَا حَاءٌ، وَالثَّانِي مِيمٌ، لَا إِعْرَابَ لَهُمَا، وَهَلْ لَهُمَا مَعْنَى؟ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ: [اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ]؛ إِذَنْ: لَا نَذْرِي هَلْ لَهَا مَعْنَى أَوْ لَا، وَلَا نَذْرِي مَا الْمُرَادُ بِالْمَعْنَى، فَمَوْقِفْنَا مِنْ هَذَا التَّفْوِيضِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ وَهَكَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ حَرْفٍ هِجَائِيٍّ ابْتَدَيْتُ بِهِ السُّورَةَ، مِثْلُ: ﴿ حَم ﴾ [الزخرف: ١]، ﴿ الرَّ ﴾ [يوسف: ١]، ﴿ ت ﴾ [القلم: ١]، ﴿ ق ﴾ [ق: ١]، ﴿ ص ﴾ [ص: ١]، وَمَا أَشْبَهَهَا.

فَالْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَا لَنَا وَلِتَفْسِيرِهَا، [اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ]، قَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنَى، وَقَدْ يَكُونُ لَمْ يُرِدْ مَعْنَى، وَقَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنَى تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّورَةُ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى آخَرَ، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ هَذَا ضَعِيفٌ.

وَالصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ: لَا مَعْنَى لَهُ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ حَشَوُ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ: لَا مَعْنَى لَهُ ذَاتِيًّا؛ بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ:

(١) المقصود بـ (المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حسن المحاضرة (١/٤٤٣).

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ثَلَاثُ آيَاتٍ.

وَاللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لَمْ تَوْضَعْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ لَهَا مَعْنَى، وَإِنَّمَا وُضِعَتْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ لِتَرْكِيبِ الْكَلَامِ مِنْهَا، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا، عِنْدَمَا تَقْرَأُ: أَلِفٌ، بَاءٌ، تَاءٌ، ثَاءٌ، جِيمٌ، حَاءٌ، خَاءٌ، فَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى، إِنَّمَا هِيَ حُرُوفٌ تُكُونُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ، فَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ - وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ -؛ فَإِنَّمَا نَجْزِمُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لِهَذِهِ الْحُرُوفِ مَعْنَى، وَإِذَا كَانَ قَدْ أَرَادَ بِهَا شَيْئًا نَقُولُ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرِيدَ بِهَا شَيْئًا وَهُوَ نَازِلٌ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَاللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لَا يَجْعَلُ لِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْهِجَائِيَّةِ مَعْنَى، فَنَحْنُ نَجْزِمُ لِقَوْلِهِ: ﴿عَكِرْتُ﴾ [النحل: ١٠٣] ^(١).

فَقَوْلُهُ: ﴿طه﴾ ﴿١﴾ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِنَشْفَقَ ﴿طه: ١-٢﴾ ف ﴿طه﴾ لَيْسَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الرُّسُولِ، بَلْ هِيَ مِثْلُ ﴿الر﴾، ﴿حم﴾، حَرْفَانِ هِجَائِيَّانِ لَيْسَ لَهُمَا مَعْنَى، وَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ خِطَابٌ؟﴾ نَقُولُ: إِذَنْ اجْعَلْ ﴿ت﴾ مِنْ أَسْمَاءِ الرُّسُولِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿القلم: ١-٢﴾ وَلَا قَائِلٌ بِهِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الْفَائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْهِجَائِيَّةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؟

أَقُولُ: الْفَائِدَةُ أَشَارَ إِلَيْهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ ^(٢) وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ وَلَحَقُوهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَهِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي عَجَزَ النَّاسُ أَنْ

(١) وانظر: تفسير سورة البقرة لفصيحة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَمْ يَأْتِ بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ فَيَحْتَجِّجَ النَّاسُ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ حُرُوفٌ لَا نَعْرِفُهَا
فَهِىَ جَدِيدَةٌ. فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ جَاءَ بِالْحُرُوفِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ
أَعْجَزَهُمْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ: وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُ سُورَةً مُفْتَتِحَةً بِهَذِهِ الْحُرُوفِ
الْمُجَانِّيَةِ إِلَّا وَجَدْتَ بَعْدَهَا ذِكْرَ الْقُرْآنِ.



(الآية ٢)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾﴾ [الزخرف: ٢].

• • • • •

﴿وَالْكِتَابِ﴾ الواو حُرْفُ قَسَمٍ، وَفَسَّرَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ بِأَنَّهُ [الْقُرْآنُ]؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْقُرْآنَ كِتَابًا فَقَالَ: ﴿الْعَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابِ ﴿وَسُمِّيَ كِتَابًا﴾:

١- لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

٢- وَلِأَنَّهُ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ الَّتِي بِأَيْدِي السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ.

٣- وَلِأَنَّهُ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ الَّتِي بِأَيْدِينَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمُبِينِ﴾ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [المُظْهِرُ طَرِيقَ الْهُدَى وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ الشَّرِيعَةِ].

﴿الْمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرَهُ؛ فَمَعْنَى كَوْنِهِ مُبِينًا أَنَّهُ مُظْهِرٌ لِلْحَقِّ مُوَضِّحٌ لَهُ، بَلْ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ.

فَقَوْلُنَا: ﴿الْمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرَهُ؛ يَعْنِي: أَنَّ الْقُرْآنَ أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِ﴿الْمُبِينِ﴾ الْبَيِّنُ. وَالْأَعْمُ أَنَّهُ مُظْهِرٌ لِلْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُظْهِرُ الْحَقَّ إِلَّا إِذَا كَانَ هُوَ ظَاهِرًا، وَعَلَى هَذَا فَفَسِّرَ ﴿الْمُبِينِ﴾ بِأَنَّهُ الْمُظْهِرُ، وَإِنْ فَسَّرْتَهُ بِهِمَا فَلَا بَأْسَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ بَيْنَ مُبِينٍ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ

إِذَا احْتَمَلْتُ مَعْنَيْنِ - وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ - لَا يُنَافِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَلَيْسَ أَرْجَحُ مِنْهُ؛
فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا.

إِذَنْ: إِذَا احْتَمَلَ اللَّفْظُ مَعْنَيْنِ مُتَسَاوَيْنِ لَا يُنَافِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ حُمِلَ عَلَيْهِمَا
جَمِيعًا.



(الآية ٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

• • • • •

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ أَوْجَدْنَا الْكِتَابَ ﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ تَفْهَمُونَ مَعَانِيهِ.

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَضَمِيرُ الْمَفْعُولِ يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ، وَمَعْنَى ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ عَلَى كَلَامِ الْمَفْسِّرِ: أَوْجَدْنَاهُ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمَعْنَى: صَيَّرْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا، أَيُّ: صَيَّرْنَاهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيُّ: تَفْهَمُونَ.

و﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ بِمَعْنَى: صَيَّرْنَاهُ، أحيانًا جَعَلَ تَكُونُ بِمَعْنَى صَيَّرَ، وَأحيانًا تَكُونُ بِمَعْنَى خَلَقَ، حَسَبَ السِّيَاقِ، إِذَا نَصَبْتَ مَفْعُولِينَ فِيهِ بِمَعْنَى صَيَّرَ، وَإِذَا نَصَبْتَ مَفْعُولًا وَاحِدًا فِيهِ بِمَعْنَى ﴿ خَلَقَ ﴾ مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] أَيُّ: بِمَعْنَى خَلَقَ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْصِبْ إِلَّا مَفْعُولًا وَاحِدًا، أَمَا إِذَا نَصَبْتَ مَفْعُولَيْنِ فِيهِ بِمَعْنَى صَيَّرَ.

وَالْخَطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ عَلَى كَلَامِ الْمَفْسِّرِ يَعُودُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْعَرَبِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: صَيَّرْنَاهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ؛ لِتَفْهَمُوهُ أَيُّهَا الْعَرَبُ.

انْتَهَى الْكَلَامُ عَنِ الْآيَاتِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ.

أَمَّا مَنْ حَيْثُ الْمَعْنَى: فَاللهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ جَعَلَهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَجْلِ فَهْمِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: جَوَازُ الْقَسَمِ مَعَ تَأَكُّدِ صِحَّةِ الْمُقْسَمِ بِدُونِ الْقَسَمِ، يَعْنِي: جَوَازُ أَنْ يُقْسِمَ الْإِنْسَانُ عَلَى الشَّيْءِ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ مَقْبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَجْهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَقْسَمَ وَقَوْلُهُ مَقْبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَصِدْقُ بِلَا يَمِينٍ، حِينَئِذٍ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَا: كَيْفَ يُقْسِمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى الشَّيْءِ وَهُوَ الصَّادِقُ بِدُونِ قَسَمٍ؟

فَنَقُولُ: لِفَائِدَتَيْنِ:

الْأُولَى: بَيَانُ أَهْمِيَّةِ هَذَا الشَّيْءِ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُقْسَمَ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْقَسَمَ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ فَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَيَكُونُ هَذَا مُطَابَقَةً بِأَسْلُوبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَيَرِدُ عَلَى هَذَا الْقَسَمِ بِالْقُرْآنِ: كَيْفَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَسَمُ بِغَيْرِ اللَّهِ؟

وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا: أَنَّ الْقُرْآنَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَالْقَسَمُ يَجُوزُ بِاللَّهِ وَبِالصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِهِ، فَزَالَ الْإِشْكَالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُقْسَمُ إِلَّا بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، بَلْ إِنَّ الْقَسَمَ نَفْسُهُ - كَمَا قَالَ مَنْ فَسَّرَهُ - تَأَكُّدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعْظَمِ بِصِفَةٍ خُصُوصَةٍ بِأَحَدِ حُرُوفِ الْقَسَمِ. وَحُرُوفُ الْقَسَمِ ثَلَاثَةٌ: الْوَاوُ، الْبَاءُ، التَّاءُ.

مثال الواو: قَوْلُهُ: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والواو هي أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْقَسَمِ.
ومثال الباء: قَوْلُ الْقَائِلِ: أَقْسِمَ بِاللَّهِ أَنَّ هَذَا حَقٌّ.
ومثال التاء: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ﴾ [الصافات: ٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مُبِينٌ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْبَيَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمُبِينِ﴾. وَلَكِنَّ هَذَا الْبَيَانُ لَيْسَ حَاصِلًا لِكُلِّ أَحَدٍ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَفْهَمُ مِنَ الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا؛ فَلَا قِسَامَ ثَلَاثَةً؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرَاتِ الْمَسَائِلِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

ولهذا لما سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهَدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: «لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عَهَدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»^(١)، وَإِنَّمَا سُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أُشِيعَ فِي رَمِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهَدَ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ وَقَالَ: أَنْتَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِي. فَبَيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْأَثَرِ قَوْلُهُ: «إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ».

ولذلك ترى بعض العلماء إذا تكلم عن الآية مُسْتَنْبِطًا فَوَائِدَهَا يَأْتِي بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ، وَمَنْ أَبْلَغَ مَا قَرَأْتُ مَا يَحْصُلُ لَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَتَلْمِيزِهِ ابْنَ الْقَيْمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِمَا مَنْ فَهَمَ الْقُرْآنَ مَا لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِمَا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَهَمُهُ دُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ دَرَجَاتٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

وَالدَّلِيلُ الْآخِرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾
[البقرة: ٧٨]، يَعْنِي: إِلَّا قِرَاءَةً، جُمِعَ أُمَيَّةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرُهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَوَارِدِ^(١)

مَعْنَى (تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ) أَيُّ: قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قُتِلَ شَهِيدًا فِي دَارِهِ وَهُوَ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَالَّذِي لَا يَفْهَمُ لَا يَقْدَحُ فِي كَوْنِ
الْقُرْآنِ بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ بَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّ الْجَبَانَ
الَّذِي بِيَدِهِ سَيْفٌ بَتَّارٌ لَا يَقْدَمُ فَيَقْتُلُ بِهِ، وَلَيْسَ هَذَا عِيًّا فِي السَّيْفِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أَشْيَاءَ لَا مَجَالَ لِلْعِلْمِ فِيهَا فَأَيْنَ بَيِّنَاتُهَا؟
قُلْنَا: بَيِّنَاتُهَا فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فِيمَا
يَتَعَلَّقُ بِالصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ بَيِّنَاتُهَا عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ لَا تَحْتَمِلُهُ الْعُقُولُ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ
أَلَّا تُفْصَلَ، وَإِلَّا فَهُوَ بَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ.

ذَكَرَ أَنَّ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ كَانَ فِي مَطْعَمٍ، وَكَانَ فِيهِ رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَى، فَاسْتَغَلَّ
النَّصْرَانِيَّ الْفُرْصَةَ لِيُلْقِيَ عَلَى هَذَا الْعَالِمِ سُؤَالَ يَتَحَدَّاهُ بِهِ، فَآتَى إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا
الشَّيْخُ. قَالَ: نَعَمْ، مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: الْقُرْآنُ كِتَابُكُمْ يَقُولُ: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
نَبِينَآ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وَنَحْنُ نَصْنَعُ هَذَا الطَّعَامَ فَأَيْنَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ؟ وَكَانَ
الْعَالِمُ الْمُسْلِمُ ذَكِيًّا، قَالَ: هَذِهِ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ، أَيُّ مَوْجُودٍ كَيْفَ نَصْنَعُهَا، قَالَ:
أَيْنَ هُوَ؟ فَنَادَى الطَّبَّاخَ، وَقَالَ: كَيْفَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَجَعَلَ الطَّبَّاخُ يَشْرَحُ لَهُ، فَقَالَ:

(١) غير منسوب، وانظره في: العين (٣٩٠/٨)، وسيرة ابن هشام (٥٣٨/١)، وتفسير ابن كثير (٢٠٥/١).

هَكَذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ. قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فَأَحَالْنَا فِيمَا لَا نَعْرِفُ عَلَى مَنْ يَعْرِفُ، وَهَذَا بَيَانٌ، فَلَمْ نَتَحَيَّرْ الْآنَ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفَ تُصْنَعُ هَذَا الطَّعَامُ؟!

لَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: الْقُرْآنُ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ نَصْنَعُ هَذَا التَّلْفِيفُونَ؟ هَلْ فِي الْقُرْآنِ وَصْفٌ لِمَصْنَاعَتِهِ؟ أَيْنَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ؟

نَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَالَنَا إِلَى سُؤَالٍ مَنْ يَعْرِفُ إِذَا كُنَّا لَا نَعْرِفُ، وَهَذَا بَيَانٌ، فَلَمْ يُوقِفْنَا مُتَحَيِّرِينَ.

إِذَنْ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَحْتَاجُ إِلَى تَدْبِيرٍ، وَبَدْوَنِ التَّدْبِيرِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَهْتَدِيَ.

ثُمَّ اَعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّمَا أَمَعَنْتَ وَتَعَمَّقْتَ فِي تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ فَتَحَ اللَّهُ لَكَ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ، وَصِرْتَ تَسْتَنْبِطُ مِنَ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا لَا يَسْتَنْبِطُهُ غَيْرُكَ، فَاحْرِصُوا عَلَى هَذَا التَّدْبِيرِ.

الْآنَ - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - فِي كَمْ يَوْمًا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟! لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا فِي لَحْظَةٍ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لَكِنَّهُ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ؛ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ أَنَّ الْإِثْقَانَ خَيْرٌ مِنَ الْعَجَلَةِ، وَلَآنَ هَذَا الْخَلْقُ لَهُ سُنَنٌ وَقَوَاعِدُ وَأَسْبَابٌ كَوْنِيَّةٌ يَنْتُجُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْعِبَادِ أَنَّ الْمُهَمَّ هُوَ الْإِثْقَانُ وَالْإِحْكَامُ دُونَ السَّرْعَةِ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ لَكَانَ فِي لَحْظَةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَعْجَزَ الْعَرَبَ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي يُرَكِّبُونَ مِنْهَا كَلَامَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ أَعْجَزَهُمْ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَكْتُوبٌ، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَمَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَمَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا. الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حَدِيثٌ، يَعْنِي: أَنَّهُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ بَلُغَةً أُخْرَى لَكِنْ صَيَّرَهُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ حَدِيثُونَ، فَيَكُونُ مَا نَزَلَ بِاللُّغَةِ حَدِيثًا، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ؛ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَدِيثٌ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ لَا يَتَكَلَّمُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ»^(١).

قُلْنَا: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَدِيثٌ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُحَدِّثُ مِنْ كَلَامِهِ مَا شَاءَ. وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ مَتَى شَاءَ، بِمَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْأَشْعَرِيَّةَ الَّذِينَ يَتَسَبَّبُونَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ أَبَدًا. قَالُوا: لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعْنَى قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، أَرَلِي، لَكِنَّهُ يُحَدِّثُ أَصْوَاتًا يَخْلُقُهَا مَتَى شَاءَ فَتُسْمَعُ. فَيَرُونَ أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِئَتِهِ.

فَأَيُّهَا أَكْمَلُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِمَشِئَتِهِ، وَبِمَا شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ، أَمْ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ

هَذَا؟

الْجَوَابُ: الْأَوَّلُ، لَكِنْ أَبَتْ بَدْعُهُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا بِالثَّانِيَةِ، وَقَدْ أَلْفَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابًا سَمَّاهُ (التَّسْعِينِيَّةَ) بَيْنَ بُطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ تَسْعِينَ وَجْهًا رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَزَاءَهُ عَنِ الْأُمَّةِ خَيْرًا.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/٢٢١) رقم (٥٨٩)، والدارقطني (٤/١٨٣)، البيهقي في السنن (١٠/١٢)، من حديث أبي ثعلبة الحشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يَجُوزُ وَصْفُ الْقُرْآنِ بِالْحُدُوثِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، مُحَدَّثٌ وَحَادِثٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] لَكِنْ لَا تَظُنَّ أَنَّ مَعْنَى مُحَدَّثٌ أَيُّ: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، لَا، مُحَدَّثٌ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حِينَ نُزُولِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْقَوْلُ الرَّاجِعُ فِي نُزُولِ الْقُرْآنِ، أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ أَوْ نُزُولَانِ: نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْنَا؟

فَالْجَوَابُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ، نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تَكَلَّمَ بِهِ عَزَّجَلَّ، ثُمَّ سَمِعَهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لِلْقُرْآنِ نُزُولًا وَاحِدًا كَيْفَ نُفَسِّرُ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]؟

فَالْجَوَابُ: نُفَسِّرُ هَذَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ أَنْزَالَهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَنْقَبَةٌ كُبْرَى لِلْعَرَبِ: أَنَّ يَكُونَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ عَصِيَّةٌ وَحَمِيَّةٌ لِلْعَرَبِ وَيَفْتَخِرُ بِهَا الْعَرَبُ الْمُلْحِدُونَ فَمَا الْجَوَابُ؛ لِأَنَّ هَذَا مُشْكِلٌ، فَالْعَرَبُ الْمُلْحِدُونَ الَّذِينَ يَبْنُونَ الْوَلَاءَ وَالْبِرَاءَ عَلَى الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ يَفْخَرُونَ بِهَذَا!!

فَنَقُولُ: مَنْ كَانَ كَافِرًا فَلَا فَخْرَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ؛ وَالذَّلِيلُ: أَبُو هَلَبٍ عَمَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ سُورَةً كَامِلَةً تُتْلَى فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الْمَسَاجِدِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ مِمَّا يُتْلَى فِيهِ الْقُرْآنُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي دَمِهِ، وَهُوَ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ عَمَّ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَالْعُرُوبَةُ لَا تُغْنِي شَيْئًا مَعَ الْكُفْرِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الدِّينُ وَالْدُنْيَا فَمَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا: صَارَ مُسْلِمًا وَعَرَبِيًّا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، أَبَدًا، كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ عَرَبِيٌّ، لَكِنَّ بَعْضَهُ مِنْ صَمِيمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبَعْضُهُ مُعَرَّبٌ، أَيْ: أَصْلُهُ غَيْرُ عَرَبِيٍّ لَكِنَّهُ عُرِّبَ، وَإِذَا عُرِّبَ صَارَ عَرَبِيًّا، فَإِنَّهُ لَمَّا تَكَلَّمَ بِهِ الْعَرَبُ صَارَ عَرَبِيًّا لِلْإِسْتِعْمَالِ وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ غَيْرَ عَرَبِيٍّ؛ أَرَأَيْتَ أَنْتَ إِذَا أَخَذْتَ الْجَنَسِيَّةَ فِي بَلَدٍ تَكُونُ مِنْهُمْ، وَأَنْتَ فِي الْأَصْلِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنْدُسٌ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ عُرِّبَتْ فَصَارَتْ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْحُجَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْفَهْمِ، أَيْ: أَنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ عَلَى الْعِبَادَةِ إِلَّا إِذَا فَهِمُوهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَالْعَقْلُ هُنَا بِمَعْنَى الْفَهْمِ، فَلَوْ تَلَّى الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ: هَذَا كَلَامُ اللَّهِ. فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ قَائِمَةً، وَيَدُلُّ هَذَا قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ؛ الْحُجَّةُ لَا تَقُومُ عَلَى الْعِبَادَةِ إِلَّا بِفَهْمِهَا وَمَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا، وَإِلَّا فَأَيُّ حُجَّةٍ فِي رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَا نَفْهَمُهُ؟! لَا حُجَّةَ؛ وَلِذَلِكَ لَوْ قَامَ أَعْجَمِيٌّ أَمَامَنَا وَنَحْنُ عَرَبٌ لَا نَعْرِفُ لُغَتَهُ وَتَكَلَّمَ بِأَفْصَحِ مَا يَكُونُ فِي لُغَتِهِ لَا نَفْهَمُ شَيْئًا أَبَدًا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ الْحُجَّةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِفَهْمِهِ، هَلْ يَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنَّ الْقُبُورِيِّينَ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا بَابَ الْعِبَادَةِ حَقَّ الْفَهْمِ - وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ - أَنَّهُمْ مَعْذُورُونَ

بَذَلِكْ؛ لَأَنَّ الْبَعْضَ يَقُولُ: الْحُجَّةُ قَائِمَةٌ بِوُجُودِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟

فَالْجَوَابُ: هَؤُلَاءِ مُقَصِّرُونَ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يُعَرِّضُ عَلَيْهِمُ الْحَقَّ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهُ، لَكِنْ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ أَنْاسًا بَعِيدِينَ عَنِ الْمَدِينِ وَعَنِ الْعِلْمِ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ، يُصَلُّونَ، وَيَعْمَلُونَ كُلَّ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ قُبُورِيُّونَ، هَؤُلَاءِ لَمْ تُقَمَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، لَكِنَّ غَالِبَ الْقُبُورِيِّينَ الْآنَ - إِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّهُمْ - قَدْ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا شِرْكٌ، وَلَكِنْ قَصَّروا وَقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فَهَمُ الْقُرْآنِ يَكُونُ عَلَى حَسَبِ ذِكَاةِ الشَّخْصِ أَوْ عَلَى حَسَبِ تَقْوَاهُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا؟

فَالْجَوَابُ: عَلَى هَذَا وَهَذَا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِلَّا فَهَمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ»^(١)، وَالتَّقْوَى لَهَا تَأْثِيرٌ فِي فَهَمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآمَنَهُمْ فَقَوَّهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وَلَمْ يَقُلْ: وَمَنْ فَهِمَهُ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنْ نَقُولَ ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ مُقَيَّدًا بِالنُّصُوصِ الْأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْفَهْمِ. أَوْ يُقَالُ: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَهُ، وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يُلْزِمَ الْعِبَادَ بِمَا لَا يَفْهَمُونَهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

فإن قيل: سياق الآيات التي فيها: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] إنما كان في رسالة النبي ﷺ فهل يصح الاستشهاد به على العموم؟
فالجواب: نعم يصح؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فائدة: بعض الناس يستنبط من الآيات ما لا تحتمله الآيات، أرايتم أول ما خرج ووصول البشر إلى القمر - ولعله حصل قبل أن يميز أكثركم، أكثركم شباب والحمد لله - لما حدثت هذه الحادثة وقالوا: إن البشر وصلوا إلى القمر وأخذوا منه عينة وجأؤوا بها إلى الأرض وادَّعَوْا أنها من القمر، أحجار سوداء رأيناها، قال الناس: هذا موجود في القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بعلم، وهؤلاء وصلوا إلى أقطار السموات بالعلم، فقالوا: هذه الآية تدل على هذا.

لكن هذا التفسير محرم، وقول على الله، وكذب على الله، فإن الآية في سياق التحدي ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، ولا يمكن أن يتحدى الله عز وجل أحدا بما يستطيع، التحدي معناه أن المخاطب لا يستطيع، هذه واحدة.

ثانياً: الآية ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ فبدأ بالسموات، فلا يمكن هؤلاء أن ينفذوا من أقطار السموات، وإذا كان أفضل رسول في البشر، وأفضل رسول في الملائكة لم يدخل السماء الدنيا إلا باستفتاح وإذن فكيف هؤلاء؟!

فهؤلاء إن نفذوا من أقطار الأرض لم ينفذوا من أقطار السموات.

ثالثاً: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَنْفَذُوا إِلَّا إِسْطَظْنَ﴾ قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] وَلَمْ يُرْسَلْ عَلَى هَؤُلَاءِ شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ؛ فَتَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّ الْمَفْسِّرَ يَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ كَذَا.

وَمِثْلُ قَوْلٍ بَعْضِهِمْ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] قَالَ: هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ.

وَالْمَسْأَلَةُ هَذِهِ حَصَلَ فِيهَا مَعْرَكَةٌ كَبِيرَةٌ: هَلِ الْأَرْضُ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ؟ وَكُتِبَتْ فِي ذَلِكَ مَنَشُورَاتٌ فِي الصُّحُفِ وَرِسَائِلُ صَغِيرَةٌ؛ إِنْكَارًا وَتَأْيِيدًا، فَجَاءَ هَذَا الرَّجُلُ الْمُتَعَلِّمُ فَقَالَ: هَذِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ قِيلَ: هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَى الشَّيْءُ إِلَّا عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَرَاهُ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ. فَقِيلَ لَهُ جَوَابًا عَلَى هَذَا: أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةً السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ① يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ [الحج: ١-٢] فَهَذَا رُؤْيَا الشَّيْءِ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ، وَهُوَ مُمَكِّنٌ؛ فَالْآيَةُ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ لِأَنَّهَا تَكُونُ هَبَاءً.

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْغَلَطِ، وَتَحْمِيلِ الْقُرْآنِ مَا لَا يَحْتَمِلُ.



الآية (٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أَرْ أَلِكْتَبِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

• • • • •

قوله: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ الضمير يعودُ عَلَى ﴿ وَأَلِكْتَبِ الْمُبِينِ ﴾، وهو القرآن ﴿ فِي أَرْ أَلِكْتَبِ ﴾ هو اللوح المحفوظ، وسُمِّيَ أُمًّا؛ لَأَنَّهُ مَرْجِعُ لَجَمِيعِ مَا يُكْتَبُ مِنْ بَعْدِهِ، وَالكِتَابَةُ أَنْوَاعٌ، وَالكِتَابَةُ الْعُظْمَى الْعَامَّةُ الشَّامِلَةُ مَا كُتِبَ فِي اللّٰوْحِ الْمَحْفُوظِ.

وقوله: ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أَي: عِنْدَنَا، وَالظَّرْفُ هُنَا حَالٌ مِنْ ﴿ أَرْ أَلِكْتَبِ ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الَّذِي لَدَى اللَّهِ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - هُوَ ﴿ أَرْ أَلِكْتَبِ ﴾؛ أَي: اللّٰوْحُ الْمَحْفُوظُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَهُوَ مُحْفُوظٌ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ؛ لَأَنَّهُ أُمُّ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ فَفِيهَا تَغْيِيرٌ وَتَبْدِيلٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقوله: ﴿ لَعَلَى حَكِيمٌ ﴾ أَي: ذُو عُلُوٍّ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَي: ذُو حُكْمٍ وَحِكْمَةٍ، وَصِفَانِ عَظِيمَانِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَصَفَ اللَّهُ بِهِمَا نَفْسَهُ.

(عَلِيٌّ) بِمَعْنَى: عَالٍ، لَكِنَّهُ أَبْلَغُ؛ لِأَنَّ (عَلِيًّا) عَلَى وَزْنِ (فَعِيلٍ) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَالصِّفَةُ الْمُشَبَّهَةُ تَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

و﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَي: ذُو حُكْمٍ وَحِكْمَةٍ؛ فَالْقُرْآنُ حَاكِمٌ، وَالْقُرْآنُ مُشْتَمِلٌ عَلَى حِكْمَةٍ. وَمَعْنَى قَوْلِنَا: (حَاكِمٌ) أَنَّهُ مَرْجِعٌ فِي الْحُكْمِ لَا يُحْكَمُ بغيرِهِ، وَمَعْنَى (حَاكِمٌ)

أَنَّهُ مُهِمِّنٌ عَلَىٰ جَمِيعِ الْكُتُبِ حَاكِمٌ عَلَيْهَا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ مُرَادَ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيْ: ذِكْرُهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ فِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ فِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ذِكْرُهُ، وَلَكِنْ إِذَا تَأَمَّلْنَا قُلْنَا: الْأَصْلُ أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى الْمُضْمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، أَيْ: إِلَى نَفْسِ الْمُضْمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ ﴿وَإِنَّهُ﴾ - أَيْ: الْقُرْآنَ - كُلُّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الْقَوْلُ يَرُدُّ عَلَيْهِ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَلِمَاتٍ تَحَدَّثَ اللَّهُ بِهَا عَنْ شَيْءٍ مَضَى، مِثْلَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] هَذَا الْحَبْرُ بَعْدَ الْمَجَادَلَةِ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إِشَارَةً إِلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ ﴿عَدَوْتَ﴾ خَرَجْتَ فِي الْغَدَاةِ، هَذَا الْحَبْرُ بَعْدَ أَنْ غَدَا؛ لِأَنَّ غَدَاً فِعْلٌ مَاضٍ، فَهَذَا يُشْكِلُ يُقَالُ: كَيْفَ كَانَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ يَتَحَدَّثُ اللَّهُ عَنْ شَيْءٍ حَصَلَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْآيَةُ؟

فَيُقَالُ: لَا إِشْكَالَ؛ وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ هَذَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَقَعُ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ، كَمَا أَنَّ الْحَوَادِثَ الْكَوْنِيَّةَ مَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لِعِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهَا سَتَقَعُ، ثُمَّ تَكُونُ حِينَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ.

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَرْجِحُ، بَلْ أَقُولُ: يَتَعَيَّنُ أَنَّ الَّذِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَيْسَ هُوَ الْقُرْآنُ؛ لَكِنَّ الَّذِي فِي اللَّوْحِ ذِكْرُ الْقُرْآنِ؛ أَيْ أَنَّهُ سَيَنْزِلُ قُرْآنًا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاسْتَدْلُوا عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وَالَّذِي فِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ هُوَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ بِلَا شَكٍّ، مُسْتَنَدًا إِلَى مِثْلِ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِّقَتَالٍ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٢١].

حَتَّى عَثَرْتُ عَلَى كَلَامٍ لِّشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَبَيَّنَ مَا ذَكَرْتُ أَحْيَرًا؛ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُكْتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِلَفْظِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلْمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ^(١)، وَأَنَّهُ سَيُنْزَلُ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ.

وِبِنَاءٍ عَلَيْهِ: تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الَّذِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ الْقُرْآنُ؛ بِنَاءً عَلَى ظَاهِرِ الْآيَاتِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَتَحَ عَلَيَّ، وَجَزَى اللَّهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ خَيْرًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِيهِ النَّقْصُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: عناية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِهِ؛ حَيْثُ جَعَلَهُ عِنْدَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ عَالٍ بَلْ عَلِيٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَلَهُ الْعُلُوُّ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] فَتَقُولُ: الْقُرْآنُ عَلِيٌّ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ فَلَهُ الْعُلُوُّ، وَشَاهِدُ هَذَا الْوَاقِعُ؛ لَمَّا كَانَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مُتَمَسِّكَةً بِالْإِسْلَامِ كَانَ لَهَا الْعُلُوُّ وَالظُّهُورُ، وَمَلَكَتْ بِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَلَمَّا تَفَاعَسَتْ وَتَخَادَلَتْ وَتَنَازَعَتْ وَتَبَاغَضَتْ صَارَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، صَارَ لَهَا الدُّنُوسُ، فَالْآنَ أُمَّةُ الْعَرَبِ يَدْعُونَ الْيَهُودَ إِلَى السَّلَامِ، وَيُكْرِّرُونَ ذَلِكَ، وَيَمْدُدُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى دَوْلِ النَّصَارَى لِتُسَاعِدَهُمْ عَلَى السَّلَامِ؛ لِأَنَّنَا لَمْ نَتَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ،

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (٢/ ٩١٣).

فَكُنَّا أَذِلَّةً نَتَوَسَّلُ لَأَعْدَائِنَا أَنْ يَقَعَ السَّلَامُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا.

فَلَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: نَحْنُ أُمَّةُ الْقُرْآنِ وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّاسُ فِي ذُلٍّ!

قُلْنَا: لَأَنَّا لَمْ نَتَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ، وَلَوْ تَمَسَّكْنَا بِالْقُرْآنِ لَضَمَّنَا لَأَنْفُسِنَا الْعُلُوَّ وَالْغَلْبَةَ وَالظُّهُورَ، لَكِنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ، فَالآنَ غَالِبُ الْمُسْلِمِينَ يَلْهَثُونَ وَرَاءَ الدُّنْيَا، مُعْرِضِينَ عَنِ الدِّينِ، يَسْأَلُونَ: مَا الَّذِي يُنْمِي الْاِقْتِصَادَ؟ مَا الَّذِي يَصِلُ بِهِ إِلَى التَّرَفِ؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَكِنْ مَا الَّذِي يُقَوِّي الدِّينَ؟ هَذَا قَلِيلٌ أَوْ نَادِرٌ، هَذَا قَلِيلٌ أَوْ مَعْدُومٌ.

إِذَنْ: الْكَلِمَةُ ﴿لَعَلِّي﴾ عَلَى ظَاهِرِهَا وَعَلَى مَعْنَاهَا، لَكِنْ بَشَرِطٌ أَنْ نَتَمَسَّكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ جَادَلَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ غَالِبٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَهُ الْعُلُوُّ هُوَ الْقُرْآنُ، أَيُّ إِنْسَانٍ يُنَاطِرُكَ وَوَسِيلَةُ إِقْنَاعِهِ وَدَحْرِهِ الْقُرْآنُ فَإِنَّكَ سَتَغْلِبُهُ بِلَا شَكٍّ، لَكِنْ لَمَّا عَدَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَّةِ إِلَى كَلَامِ أَهْلِ الْكَلَامِ -الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ- لَمْ يَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَمْ يَغْلِبُوا الْأَعْدَاءَ، بَلْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ.

حَتَّى الْفَلَاسِفَةُ الْمُلْحِدُونَ صَارُوا يَحْتَجُّونَ بِعَمَلِ الْأَشَاعِرَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْأَشَاعِرَةِ، أَنْتُمْ أَهْلُ الْمَعْتَرَلَةِ، حَرَفْتُمْ النُّصُوصَ إِلَى مَا تَرَوْنَهُ عَقْلًا، وَنَحْنُ أَيْضًا أَنْصَرَفْنَا عَنِ النُّصُوصِ إِلَى مَا نَرَاهُ عَقْلًا، فَاحْتَجُّوا بِبِدْعِ هَؤُلَاءِ عَلَى إِلْحَادِهِمْ، وَقَالُوا: نَحْنُ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ، أَنْتُمْ حَرَفْتُمْ وَنَحْنُ حَرَفْنَا؛ وَلَكِنْ لَوْ تَمَسَّكْنَا بِالْقُرْآنِ لَا يَسْتَطِيعُ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ أَنْ يُجَاهِبُونَا.

وَاقْرَأْ كُتُبَ أَهْلِ الْكَلَامِ تَجِدُ صَفْحَةً صَفْحَتَيْنِ لَا تَأْتِي مِنْهُمَا إِلَّا بِفَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَهَذَا صَحَّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ الْكَلَامِ وَكَلَامُهُمْ كَلَامٌ، بِمَعْنَى أَنْ كَلَامَهُمْ لَا فَائِدَةَ

فِيهِ؛ وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ لَمَّا شَكَأَ إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ مَا يَجِدُونَ فِي نَفُسِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١)، وَأَمَرَ مَنْ يَجِدُ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ أَنْ يَسْتَعِذَ بِاللَّهِ وَيَنْتَهِيَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَه»^(٢) كَلِمَتَانِ. فَيَكْتُبُ الْفَلَاسِفَةُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذَا الْكَثِيرِ مِمَّا يَدَّعُونَ أَنَّهُ عَقْلِيَّاتٌ، وَهُوَ وَهْمِيَّاتٌ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا وَإِيَّاكُمْ التَّمَسُّكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَأَنْ يُعِزَّنَا بِهِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الآية ٥)

••❦••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَنَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥].

••❦••

الهمزة هنا للاستفهام، المراد به النفي؛ بدليل أن المفسر قدّر بعد ذلك قوله: لَنْ. يعني: لَنْ نَضِرْبَ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا. المعنى: أَنَّا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَتْرُكَكُمْ بَدُونِ إِنْذَارٍ؛ لَكُونَكُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِنْذَارِ كَمَا تَقُولُ: ضَرَبْتُ عَنْ هَذَا صَفْحًا؛ يعني: أَعْرَضْتُ عَنْهُ، وَلَنْ تَرْفَعَ بِهِ رَأْسًا، وَالْمُرَادُ بِهَذَا - كَمَا قُلْتُ - النَّفْيُ؛ تَوْبِيخًا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: (نَضِرْبُ) يَعُودُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَتَى بِالضَّمِيرِ الدَّالَّ عَلَى الْجَمْعِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ لِلتَّعَدُّدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ الْوَاحِدَ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقوله: ﴿ عَنْكُمْ ﴾ يَعُودُ إِلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ.

وقوله: ﴿ صَفْحًا ﴾ مَصْدَرٌ مَعْنَوِيٌّ لِكَلِمَةِ (نَضِرْبُ)؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ (إِعْرَاضًا).

فَمَعْنَى الْآيَةِ إجمالًا: أَعْرِضْ عَنْ تَذَكِيرِكُمْ وَإِنْذَارِكُمْ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْعَرَبُ فِي كَلَامِهِمْ؛ يَقُولُ: أَعْرِضْتُ عَنْكَ صَفْحًا يَعْنِي: لَمْ أَبَالِ بِكَ وَلَمْ أَلْفِتْ إِلَيْكَ.

وقوله: ﴿ أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾: ﴿ أَنْ ﴾ وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ

مَصْدَرٍ مَفْعُولٍ لِأَجْلِهِ؛ أَي: لِأَجْلِ أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ، فَهِيَ تَعْلِيلِيَّةٌ. وَالْإِسْرَافُ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتْرُكْ عِبَادَهُ هَمَلًا، بَلْ بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ مُخَالَفَتِهِ فَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ عُذْرٌ.

الفائدة الثانية: أَنَّ الإنسانَ مَعذُورٌ بِالْجَهْلِ إِذَا لَمْ تَبْلُغْهُ الرِّسَالَةُ، وَهَذَا لَهُ أُدِلَّةٌ:

مِنْهَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ﴾ (١١٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

ومنها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَهَا رَسُولًا يَقُولُ لَهُمْ عَابِدُونِي وَآتُوا زَكَاةً وَأَقْرِبُوا وَجْهَكُمْ لِلْذِّكْرِ﴾ [القصص: ٥٩]،
وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، فَقَالَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يُشْتَرَطُ مَعَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَفْهَمَهَا الْمُخَاطَبُ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، يُشْتَرَطُ هَذَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أَيُّ فَائِدَةٍ فِي رَّسُولٍ يَأْتِي إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ لُغَتَهُ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ؟! لَا فَائِدَةٌ تَحْصُلُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَ قَوْمًا بِدُونِ أَنْ يَفْهَمُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

يَبْقَى النَّظَرُ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُسْلِمًا وَلَكِنَّهُ يَقُومُ بِأَعْمَالٍ شَرَكِيَّةٍ لَا يُظَنُّ أَنَّهَا شِرْكٌ، فَهَلْ يُحْكَمُ بِشِرْكِهِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، فَإِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، فَحِينَئِذٍ نَحْكُمُ بِشِرْكِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْبِدْعَ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، لَكِنَّ الْمُبْتَدِعَ أَشَدُّ؛ لِأَنَّ الْمُبْتَدِعَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يَضِلُّ بِهِ أَنَاسٌ كَثِيرُونَ، وَالشِّرْكُ لَا يَضُرُّ إِلَّا صَاحِبَهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمُشْرِكُ لَهُ طَاعَةٌ عِنْدَ قَوْمِهِ، وَيَكُونَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ يَتَّبِعُونَهُ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُبْتَدِعِ، أَمَّا إِذَا كَانَ عَامِيًّا فَإِنَّهُ لَا يُؤْثَرُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ؛ وَهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الْمُبْتَدِعُ لَا تَوْبَةَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ تَابَ بِنَفْسِهِ لَا يَسْلَمُ مِنْ ضَلَالَةِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَكِنَّهُ صُوفِيٌّ فَأَعْطَاهُ الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِ الصُّوفِيَّةِ وَالْأَذْكَارِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَصَارَ يَعْمَلُ بِهِذَا وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ، هَلْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ؟

فالجواب: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَذَّبَ أَحَدٌ عَلَى بَاطِلٍ إِلَّا إِذَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ،
 فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ أَرْحَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يُعَذَّبَ شَخْصًا وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَكِنْ هُنَاكَ أَنَا
 مُعَانِدُونَ يُذَكِّرُهُمُ الْحَقُّ وَيَقُولُ: لَا، أَنَا أَتَّبِعُ شَيْخِي. حَتَّى لَوْ كَانَ الَّذِي ذَكَرَ لَهُ الْحَقُّ
 عَالِمًا مَعْرُوفًا يَقُولُ: لَا، أَتَّبِعُ مَشَايِخِي. فَهَذَا لَا يُعَذَّرُ، لَكِنْ لَوْ أَنَّ عَامِّيًّا أَعْلَمَهُ أَنَّ
 هَذَا الْعَمَلُ لَا يَجُوزُ وَهَذَا شِرْكٌ، وَمَشَايِخُهُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا حَسَنٌ. فَهُوَ مَعذُورٌ؛
 لِأَنَّهُ لَا يَثِقُ، فَلَمْ يَأْتِ لَهُ الْحَقُّ عَلَى وَجْهِ يَثِقُ بِهِ، فَالآنَ نَحْنُ الْعُلَمَاءُ لَوْ جَاءَنَا إِنْسَانٌ
 عَلَى عَكْسِ مَا جَاءَ بِهِ عُلَمَاؤُنَا وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُهُ مَا أَتَّبَعْنَاهُ، لَكِنْ قَدْ يُقَالُ: كَوْنُهُ أَعْلَمُ
 بِأَنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ وَأَنَّ الْحَقَّ خِلَافُهُ يُلْزِمُهُ بِأَنْ يَبْحَثَ وَيَسْأَلَ، فَقَدْ يُؤَاخَذُ مِنْ هُنَا، أَيُّ
 مِنَ التَّقْصِيرِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ.

وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: رَجُلٌ فِي الْعَابَاتِ بَعِيدٌ عَنِ الْمُدُنِ، بَعِيدٌ عَنِ الْحَضَارَاتِ، لَكِنَّهُ
 يَنْتَمِي إِلَى دِينٍ كُفْرٍ، فَهَلْ هَذَا مَعذُورٌ؟

فالجواب: أَمَّا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ بِمَعذُورٍ. يَعْنِي: أَنَّنَا نُعَامِلُهُ مُعَامَلَةَ الْكَافِرِ؛
 لِأَنَّهُ لَا يَنْتَمِي إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ، نُعَامِلُهُ فِي الدُّنْيَا مُعَامَلَةَ الْكَافِرِ، أَمَّا
 فِي الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا نَدْرِي مَاذَا يَكُونُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ
 أَهْلَ الْفِتْرَةِ يُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَمْتَحِنُهُمْ مِنْ أَطَاعَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ
 عَصَى دَخَلَ النَّارَ»^(١).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الْآخِرَةُ دَارَ تَكْلِيفٍ؟

فالجواب: نَعَمْ، نَلْتَزِمُ بِهِذَا، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ الْآخِرَةَ دَارُ تَكْلِيفٍ؛ فَقَالَ

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٤/ ٢٤)، من حديث الأسود بن سريع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

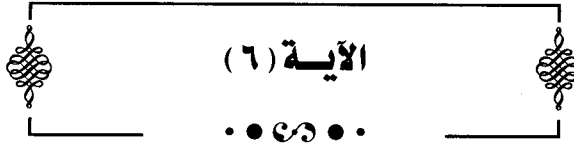
عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةً أَنْصَرُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ [القلم: ٤٢-٤٣] فَهَذَا كُلُّهُمَا بِالسُّجُودِ مَعَ أَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ دَارَ تَكْلِيفٍ فِي الْأَصْلِ، لَكِنْ قَدْ يُكَلِّفُ النَّاسُ فِيهَا.

الفائدة الثالثة: أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مُعَلَّلَةٌ بِعِلَلٍ مُنَاسِبَةٍ لِلْحُكْمِ، وَهَذَا مِنْ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ؛ أَلَا نَجِدُ حُكْمًا إِلَّا وَلَهُ حِكْمَةٌ، وَلَكِنْ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَهُ حِكْمَةٌ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً لَنَا؟

الجواب: لَا؛ لِأَنَّ أَفْهَامَنَا وَعُقُولَنَا أَدْنَى مِنْ أَنْ تُحِيطَ عِلْمًا بِاللَّهِ، بِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِشَيْءٍ قَدَرًا أَوْ شَرْعًا إِلَّا وَلَهُ حِكْمَةٌ، إِذَا حَكَمَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ بِحُكْمٍ فَلَا تَبَغٍ بِهِ بَدِيلًا؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وَمَا سُئِلَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ دُونَ الصَّلَاةِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).



❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦].

••❁••

(كَمْ) هَذِهِ خَبَرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ، عَامِلُهَا مَا بَعْدَهَا ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وَالْإِرْسَالُ هُوَ الْإِيْحَاءُ إِلَى بَشَرٍ بِشَرِيعَةٍ وَيُؤْمَرُ بِتَبْلِغِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ نَبِيِّ﴾ بَيَانٌ لـ (كَمْ) وَالْمُرَادُ هُنَا الرَّسُولُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ﴾ وَالنَّبِيُّ يُطْلَقُ عَلَى الرَّسُولِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ: الرَّسُولُ.

﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أَيِ: السَّابِقِينَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ.

••❁••

(الآية ٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف: ٧].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَا ﴾ كَانَ ﴾ يَأْتِيهِمْ ﴾] قَدَّرَ الْمُفَسِّرُ (كَانَ)؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ قَدْ مَضَى، وَلَوْ كَانَ عَلَى نَسَقِ الْكَلَامِ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ لَكَانَ هَذَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِذَلِكَ قَدَّرَ الْمُفَسِّرُ (كَانَ) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُمُقِ عِلْمِ الْمُفَسِّرِ.

وَلَكِنْ خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقْدِيرِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ مُقَدَّرٌ أَوْ لَا يَكُونُ مُقَدَّرٌ، فَلَا أَصْلَ لِعَدَمِ التَّقْدِيرِ، فنقول: الْآيَةُ بَاقِيَةٌ عَلَى ظَاهِرِهَا، لَكِنَّهَا عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ؛ يَعْنِي: كَأَنَّ الْمَاضِيَ حَاضِرٌ الْآنَ، وَهَذَا أُبْلَغُ فِي تَخْوِيفِ قُرَيْشٍ مِنَ الْمَخَالَفَةِ.

فَالْمُفَسِّرُ قَدَّرَ (كَانَ)؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ مَضَى، فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَدَّرَ فِعْلًا مَاضِيًا، وَنَحْنُ نَقُولُ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقْدِيرِ، وَجَاءَتِ الْآيَةُ فِي سِيَاقِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ حِكَايَةً لِلْحَالِ، كَأَنَّ الْأَمْرَ وَقَعَ الْآنَ، فَيَكُونُ هَذَا أُبْلَغُ فِي إِنْذَارِ قُرَيْشٍ وَتَحْذِيرِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ ﴾: ﴿ مِّن ﴾ هَذِهِ زَائِدَةٌ إِعْرَابًا، لَكِنَّهَا مُفِيدَةٌ لِّلْمَعْنَى، زَائِدَةٌ إِعْرَابًا بِمَعْنَى: أَنَّهَا لَوْ نَزَعَتْ مِّنَ السِّيَاقِ لَتَمَّ بِدُونِهَا، لَوْ كَانَ لَفْظُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (وَمَا يَأْتِيهِمْ نَبِيٌّ) يَسْتَقِيمُ الْكَلَامُ، وَلَكِنْ جَاءَتْ (مِّنْ) زِيَادَةً فِي الْفَائِدَةِ، وَهِيَ كَمَا

يَقُولُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ وَعُلَمَاءُ النَّحْوِ: إِنَّ زِيَادَةَ الْكَلِمَةِ -يعني: الْحَرْفَ فِي الْجُمْلَةِ- تَدُلُّ عَلَى التَّوَكُّيدِ، يَعْنِي: كُلُّ كَلِمَةٍ زَائِدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ فِيهِ مُفِيدَةٌ لِّلْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا يَقْبَلُونَ وَلَا يَسْكُتُونَ، بَلْ يَسْتَهْزِئُونَ، وَالاسْتَهْزَاءُ: الشُّخْرِيَّةُ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَسْخَرُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ؛ لِيَحْذَرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ، فَانْظُرْ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ كَيْفَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَدْعُوعِينَ سَيَقَابِلُونَهُمْ بِالْاسْتَهْزَاءِ، وَلَكِنْ إِقَامَةُ لِلْحُجَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي السَّابِقِينَ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّهُمْ مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَن لَّمْ يُقْصَصْ عَلَيْنَا فَلَن نَسْتَطِيعَ أَنْ نَعْرِفَ عَدَدَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ يُسْتَهْزَأُ بِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَسَلَّى وَلَا شَكَّ.

وَاعْرِفْ أَنَّ هَذَا مِنْ نَفْسِكَ؛ فَإِذَا أُصِيبَتْ بِمُصِيبَةٍ وَأُصِيبَ غَيْرُكَ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ، أَلَسْتَ تَسَلَّى بِهَذَا وَتَهُونُ عَلَيْكَ الْمُصِيبَةُ؟ بَلَى، وَفِي هَذَا يَقُولُ اللَّهُ سُُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩]، يَعْنِي: أَنَّ اشْتِرَاكَهُمْ فِي الْعَذَابِ لَا يُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، وَلَا يَحْصُلُ لَكُمْ بِهِ تَسْلٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ -أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا- لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ أَخَفَّ عَذَابًا؛ وَلِذَلِكَ يَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- إِذَا رَأَى أَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا وَهُوَ أَهْوَاهُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الاسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ تَكْذِيبٌ لَهُمْ وَزِيَادَةٌ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وَاعْلَمْ أَنَّ الاسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ كُفْرٌ، وَالاسْتِهْزَاءَ بِالْكِتَابِ كُفْرٌ، وَالاسْتِهْزَاءَ بِاللَّهِ كُفْرٌ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا فَمَا كُنْتُمْ بِإِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ اسْتَهْزَأَ بِاللَّهِ أَوْ آيَاتِهِ أَوْ رَسُولِهِ، أَوْ سَبَّ اللَّهَ أَوْ كَتَبَهُ أَوْ رَسُولَهُ، هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ أَوْ لَا تُقْبَلُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَالصَّحِيحُ التَّفْصِيلُ فِي هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ وُجِدَ مَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْبَتِهِ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ، وَإِلَّا فَلَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْمُسْتَهْزِئَ أَوْ السَّاحِرَ أَوْ السَّابَّ ثَلَاثَ حَالَاتٍ:

الْحَالُ الْأَوَّلَى: أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي ذَلِكَ، فَهَذَا لَا تَوْبَةَ لَهُ، وَيُقْتَلُ رِدَّةً.

الْحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ تَابَ تَوْبَةً نَصُوحَةً؛ لِأَنَّهُ اسْتَقَامَ وَصَلَحَتْ حَالُهُ، فَهَذَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ بِلا إِشْكَالٍ.

الْحَالُ الثَّالِثَةُ: أَنْ تَرَدَّدَ هَلْ هُوَ صَادِقٌ فِي تَوْبَتِهِ أَوْ غَيْرُ صَادِقٍ. فَهَذَا يُقْتَلُ، وَيَكُونُ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ نَقْتُلُهُ لظَاهِرِ حَالِهِ؛ لِأَنَّا لَمْ نَتَيَقَّنْ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَ قَدْ تَغَيَّرَتْ إِلَى مَا يَمْنَعُ قَتْلَهُ، فَنَقْتُلُهُ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الاسْتِهْزَاءُ بِاللَّهِ وَسَبُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ذَنْبًا عَظِيمًا لَا يُحْتَمَلُ أَنْ تُقْبَلَ تَوْبَةُ فَاعِلِهِ؟

فالجواب: أَنْ نَقْرَأَ قَوْلَ اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِي نَفْسِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ: ﴿لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعَفُّ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٥] يَعْنِي: إِذَا عَفَوْنَا عَنْ طَائِفَةٍ بَتَوْبَتِهِمْ عَذَّبْنَا الطَّائِفَةَ الْأُخْرَى الَّتِي لَمْ تُتَّبْ، وَاقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

مَسْأَلَةٌ: هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْمُرتَدِّ؟

الجواب: الصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ صَادِقٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَلْعَبُ بِنَا فَيَقُولُ: إِنَّهُ تَائِبٌ وَهُوَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فَلَا، وَيُقْتَلُ مَا لَمْ نَعْلَمْ أَنَّهُ تَائِبٌ.

مَسْأَلَةٌ: مَا حُكْمُ الْمُسْتَهْزِئِ بِأَهْلِ الدِّينِ؟

فالجواب: الَّذِي يَسْتَهْزِئُ بِأَهْلِ الدِّينِ إِذَا اسْتَهْزَأَ بِهِمْ لِدِينِهِمْ فَهُوَ مُسْتَهْزِئٌ بِاللِّدِينِ، وَإِنْ اسْتَهْزَأَ بِهِمْ لَشَكْلِهِمْ فَلَا، وَلِذَلِكَ الْآنَ لَوْ وَجَدْنَا أَحَدًا رَفَعَ ثَوْبَهُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَعَبِّرِينَ الْمُطَاعِينَ لَا تَجِدُ أَحَدًا يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ، لَكِنْ لَوْ جَاءَ إِنْسَانٌ عَامِيٌّ اسْتَهْزَأَ بِهِ، وَهُنَا نَقُولُ: إِنَّ الاسْتِهْزَاءَ هُنَا لَيْسَ اسْتِهْزَاءً لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِهْزَاءٌ بِهَذَا الرَّجُلِ، فَيَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.



(الآية ٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴾

[الزخرف: ٨].

• • • • •

(أَهْلَكْنَا) يَعْنِي بِالْمَوْتِ، ﴿ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾: ﴿ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ أَي: مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، ﴿ بَطْشًا ﴾ أَي: [قُوَّة] ﴿ وَمَضَىٰ ﴾ أَي: [سَبَقَ فِي آيَاتٍ] ﴿ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ يَعْنِي: قُوَّة، كَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ، وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ، أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ أَشَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَشَدُّ بَطْشًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَمَعَ ذَلِكَ مَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَانُ شِدَّةِ صَبْرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ إِتَّهَمُوا يُسْتَهْزَأُ بِهِمْ، وَهُمْ صَابِرُونَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَإِلَّا فَمَنْ الَّذِي يُطِيقُ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، لَوْلَا أَنْ يُثَبِّتَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْإِنْسَانَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لَنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٤].

الفائدة الثانية: تَحْذِيرُ قُرَيْشٍ مِنْ رَدِّ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَعَّدَهُمْ بِذِكْرِ إِهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ، وَكُلِّ إِنْسَانٍ لَهُ قَلْبٌ إِذَا ذُكِرَ لَهُ حَالُ الْأُمَمِ

السَّابِقَةِ، وَأَتَتْهُمْ أَهْلِكُوا فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَّعِظَ وَلَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ وَيَخْشَى.

الفائدة الثالثة: جَوَازُ التَّحْوِيلِ عَلَى شَيْءٍ سَابِقٍ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَضَى
مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٥ أَي: حَالُهُمْ وَصِفَاتُهُمْ، وَالتَّحْوِيلُ فِيهِ فَائِدَةٌ، وَهِيَ: أَنْ يَتَذَكَّرَ
الْإِنْسَانُ مَا مَضَى وَأَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ.

وَقَدْ عَابَ قَوْمٌ عَلَى الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بكَثْرَةِ حِوَالَاتِهِ فِي (فَتْحِ الْبَارِي)
وَالْحَقِيقَةُ أَنْ لَا عَيْبَ، وَلَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَدْ يُحِيلُ أحيانًا وَلَا نَجِدُ مَا أَحَالَ بِهِ،
فَأحيانًا يَقُولُ: يَأْتِي فِي بَابِ كَذَا وَلَا نَجِدُهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَعْدُورًا بِالنِّسْيَانِ، أَوْ
الْحَقُّهُ بِنُسْخَةٍ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

المهم: فائدة الإحالاتِ تذكيرُ الإنسانِ مَا سَبَقَ، وَاهْتِمَامُهُ بِالكِتَابِ، وَرَوَاجُ
الكِتَابِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِحَالَاتٌ فَلَا زِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ كُلُّ الْكِتَابِ،
لِأَنَّهُ سَيُحَالُ عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ.



(الآية ٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

• • • • •

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْجُمْلَةُ هَذِهِ فِيهَا شَرْطٌ وَفِيهَا قَسَمٌ، فِيهَا شَرْطٌ ﴿ وَلَيْنَ ﴾، وَفِيهَا قَسَمٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ؛ لِأَنَّ اللَّامَ مُوطِئَةً لِلْقَسَمِ، وَالْقَسَمُ يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَالشَّرْطُ يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، فَالْقَسَمُ يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ وَهُوَ ذِكْرُ الْمُقَسَمِ عَلَيْهِ، وَالشَّرْطُ يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ وَهُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا مَاذَا نُقَدِّمُ؟

الجواب: يَقُولُ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْأَلْفِيَّةِ:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ^(١)

الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي مَعَنَا الْمُؤَخَّرُ هُوَ الشَّرْطُ، إِذِنْ: اخْذِفْ جَوَابَ الشَّرْطِ وَاکْتَفِ بِجَوَابِ الْقَسَمِ عَنْهُ؛ وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الْآيَةَ قُرِنَ بِالْجَوَابِ اللَّامُ، وَهِيَ ﴿ لِيَقُولَنَّ ﴾ وَلَوْ كَانَ هَذَا جَوَابًا لِلشَّرْطِ لَمْ نَحْتَاجْ إِلَى اللَّامِ.

وقوله: ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ خُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ

(١) الألفية (ص: ٥٩).

لَتَوَالِي النُّونَاتِ وَوَإِ الضَّمِيرِ؛ لالتقاء السَّاكِنَيْنِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أَصْلُهَا قَبْلَ الحَذْفِ
 (لَيَقُولَنَّ) عِنْدَنَا ثَلَاثُ نُونَاتٍ، احْذِفِ النُّونَ الْأُولَى؛ لِأَنَّ حَذْفَهَا مُعْتَادٌ، أَيِ:
 حَذْفُ نُونِ الرَّفْعِ مِنَ الْمُضَارِعِ كَثِيرٌ، وَلِأَنَّ نُونَ التَّوَكِيدِ جَاءَتْ لِعَرَضٍ لَوْ حَذَفْنَاهَا
 لَفَاتِ الْغَرَضُ، وَهُوَ التَّوَكِيدُ، إِذَنْ: فَحَذِفْ نُونَ الرَّفْعِ، وَهِيَ النُّونُ الْأُولَى؛ لَتَوَالِي
 النُّونَاتِ، ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ الضَّمِيرِ (لَيَقُولَنَّ) الْوَإِ حَذَفْنَاهَا لِالتَّوَكُّفِ السَّاكِنَيْنِ، السَّاكِنَانِ
 هُمَا: الْوَإِ السَّاكِنَةُ، وَالنُّونُ الْمُشَدَّدَةُ الْحَرْفُ الْأَوَّلُ مِنْهَا سَاكِنٌ، فَتُحَذَفُ الْوَإِ.

هَذَا التَّعْلِيلُ هُوَ مِنَ النَّحْوِيِّينَ لَا شَكَّ، وَإِلَّا فَالرَّجُلُ الْعَرَبِيُّ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِذِهِ
 الْكَلِمَاتِ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ أَنَّهُ حَذَفَ نُونَ الرَّفْعِ وَحَذَفَ وَوَ الضَّمِيرِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.
 لَكِنَّ عُلَمَاءَ النَّحْوِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَلْتَمِسُونَ التَّوَجِيهَاتِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ، فَوَجَدُوا هَذَا التَّوَجِيهَ،
 وَلَوْ قُلْتُ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ انْظُرِ
 الْجَوَابُ - وَهُوَ جَوَابٌ صَحِيحٌ مِثْلُ الْمِثْلَةِ -: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ أَيِ: السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذُو الْعِزَّةِ، وَالْعِزَّةُ أَمْرٌ مَعَانِيهَا الْغَلْبَةُ، يُقَالُ: عَزَّ فُلَانٌ
 فَغَلَبَ. وَلَهَا مَعْنَى آخَرُ وَهُوَ: الْقَدْرُ، يَعْنِي: الشَّرَفُ وَالرَّفْعَةُ. وَلَهَا مَعْنَى ثَالِثٌ وَهُوَ:
 الشَّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ؛ وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ: أَرْضٌ عَزَازٌ؛ أَيِ: شَدِيدَةٌ صُلْبَةٌ.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنَبِّقَ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي اتَّصَفَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِزَّةِ،
 فَتَقُولُ: عَزِيزٌ مِنَ الْعِزِّ وَهُوَ الْغَلْبَةُ، وَعَزِيزٌ مِنْ عِزَّةِ الْقَدْرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ
 أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَزِيزٌ مِنْ عِزَّةِ الشَّدَّةِ وَالصَّلَابَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ
 اللَّهَ تَعَالَى مُتَمَتِّعٌ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَيِّ سُوءٍ وَأَيِّ عَيْبٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَلِيمُ﴾ أَيِ: ذُو الْعِلْمِ التَّامِّ.

وَتَأْمَلْ كَيْفَ جَاءُوا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إِمَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِأَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ أَمَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ، قَالُوا: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذَا الْإِقْرَارُ يُلْزِمُهُمْ أَنْ يُقَرُّوا بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يُقَرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِقَوْلِهِمْ فِي الْجَوَابِ: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَإِقْرَارُهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يُلْزِمُهُمْ أَنْ يُقَرُّوا بِتَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ، فَيُقَالُ: إِذَا أَقَرَرْتُمْ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ فَأَقَرُّوا أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ.

الفائدة الثانية: أَنَّ لِّلْسَمَوَاتِ عَدَدًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ عَدَدَ السَّمَوَاتِ سَبْعٌ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [الطلاق: ١٢].

أَمَّا الْأَرْضُ فَلَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّهَا سَبْعٌ، لَكِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ كَذَلِكَ، مِثْلَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فَإِنَّ الْمُوَازَنَةَ هُنَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِالْحَجْمِ وَلَا بِالْقُوَّةِ؛ لِأَنَّ السَّمَوَاتِ أَوْسَعُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ وَأَقْوَى، فَلَمْ يَبَقَ إِلَّا الْعَدَدُ، وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ صَرِيحَةً فِي ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١)، وَالسَّمَوَاتُ طِبَاقٌ، وَاحِدَةٌ فَوْقَ الْأُخْرَى، وَإِذَا كَانَ وَاحِدَةٌ فَوْقَ الْأُخْرَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لَزِمَ أَنْ تَكُونَ السَّمَاءُ الثَّانِيَةُ أَوْسَعَ مِنَ الْأُولَى؛ لِأَنَّهَا دَائِرَةٌ، وَالثَّالِثَةُ: أَوْسَعُ مِنَ الثَّانِيَةِ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

وَهَذَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي السَّمَوَاتِ اتَّسَعَتِ السَّمَوَاتُ، وَهِيَ طَبَاقٌ بَلَا شَكٍّ كَمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَكَمَا جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمَّا الْأَرْضُ فَهِيَ طَبَاقٌ أَيْضًا بِدَلِيلِ أَنْ مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ، وَلَوْ لَا أَنَّ الْأَرْضَ الثَّانِيَةَ تَحْتَ، وَالثَّالِثَةَ تَحْتَهَا، وَهَكَذَا لَمْ يُطَوِّقِ الْإِنْسَانُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ؛ لِأَنَّهُ مَا غَضَبَ إِلَّا ظَاهِرَ الْأَرْضِ، فَتَكُونُ الْأَرْضُونَ طَبَاقًا.

أَمَّا كَيْفَ هَذِهِ الطَّبَاقُ، فَإِلَى الْآنَ لَمْ نَصِلْ إِلَى عِلْمِ بِهَا، وَعُلَمَاءُ الْجْيُودِجَا الَّذِينَ يَخْفَرُونَ أَعْمَاقِ الْأَرْضِ لَا يَطْلُعُونَ عَلَى هَذَا، فَهُوَ مَجْهُولٌ لَنَا، لَكِنَّ الْحَدِيثَ: «طَوْفَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا طَبَاقٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُمَا ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وَاعْلَمْ أَخِي أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةٍ، فَالْعَزِيزُ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةِ الْعِزَّةِ، وَالْعَلِيمُ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةِ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ يُشْتَقُّ مِنْهَا اسْمٌ؛ وَهَذَا نَقُولُ: إِنَّ بَابَ الصِّفَاتِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ يُوجَدُ صِفَاتٌ لَيْسَ اللَّهُ مِنْهَا أَسْمَاءً، لَكِنَّ لَا يُوجَدُ اسْمٌ إِلَّا وَمِنْهُ صِفَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



الآية (١٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [طُرُقًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾].

قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ هَذَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ. وَقَدْ انْتَهَى كَلَامُهُمْ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، أَمَّا ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فَهَذَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلْ، وَمَعْنَى ﴿جَعَلَ﴾ صَيَّرَ، ﴿لَكُمْ﴾ الْأَرْضَ مَهْدًا أَي: كَالْمَهْدِ، مُوَطَّأَةً قَرَارًا يَطْمَئِنُّ بِهَا الْإِنْسَانُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَي: صَيَّرَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا، أَي: طُرُقًا، هَذِهِ الطُّرُقُ تَكُونُ بَيْنَ الشَّعَابِ وَالْجِبَالِ وَالْوَهَادِ، حَتَّى إِنَّهُ لَتَأْتِي الرِّيَّاحُ الشَّدِيدَةُ وَتَبْقَى هَذِهِ الطُّرُقُ مَعْلُومَةً، يُسْتَدَلُّ عَلَى هَذِهِ الطُّرُقِ بِالْجِبَالِ وَالشَّعَابِ وَالنُّجُومِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَعَلَّمَنِي وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ (لَعَلَّ) تَأْتِي لِلتَّعْلِيلِ - كَمَا هُنَا - وَتَأْتِي لِلتَّرَجِّي، وَتَأْتِي لِلتَّوَقُّعِ، وَالَّذِي يُعَيِّنُ الْمَعْنَى هُوَ سِيَاقُ الْكَلَامِ وَقَرَأْنُ الْأَحْوَالِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّجَلْ: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ أَي: تَعْلَمُونَ الطُّرُقَ، فَالْهِدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ الطُّرُقِ

إِلَى مَقَاصِدِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ. وَالْآنَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - وَجِدْتَ طُرُقَ مُمَهَّدَةً بَيْنَهُ مِنَ الْمُدُنِ
وَالْقُرَى وَغَيْرِهَا، كُلُّ ذَلِكَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ * الْمَقْصُودُ بِالْهِدَايَةِ
هِدَايَةُ الطَّرِيقِ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هِدَايَةِ الْاِعْتِبَارِ بِالْآيَةِ؟
فَالْجَوَابُ: لَا، فَالسِّيَاقُ يَمْنَعُ هَذَا.



الآية (١١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

• • • • •

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قِرَاءَتَانِ «مِهَادًا» وَقَدْ جَاءَتْ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِهَذَا اللَّفْظِ، وَ﴿مَهْدًا﴾ وَهِيَ بِمَعْنَى (مِهَاد).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَي: أَنْزَلَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَجَدَّ الْمَطَرُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ نُقْطًا، وَلَوْ جَاءَ كَأَفْوَاهِ الْقَرَبِ لَأَفْسَدَ الْأَرْضَ وَهَدَمَ الْبِنَاءَ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ جَعَلَهُ يَنْزِلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ تَسِيلُ مِنْهُ الْأَوْدِيَةُ وَهُوَ مِنْ نُقْطَةٍ نُقْطَةً، لَكِنْ مَعَ كَثْرَتِهِ تَسِيلُ بِهِ الشَّعَابُ.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ السَّمَاءُ هُنَا الْمُرَادُ بِهَا الْعُلُوُّ، وَاعْلَمْ أَنَّ السَّمَاءَ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: العُلُوُّ.

والمعنى الثاني: السَّقْفُ المحفوظ الذي هُوَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ.

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ هُنَا السَّقْفُ المحفوظ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ٩٩] فَالْمُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ؛

لَأَنَّ الْمَطَرَ لَيْسَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ نَفْسَهَا، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ مِنَ الْعُلُوِّ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ:
﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالسَّحَابُ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ لَاصِقًا،
وَلَكِنَّهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ إِلَى الْأَرْضِ أَقْرَبُ.

إِذَنْ: فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَطَرَ لَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْحِكْمَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُ -أَيِ: الْمَطَرُ- مِنْ فَوْقَ أَنْ
يَرَوِيَ الْأَرْضَ عُلوِّيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا، وَالْحِكْمَةُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ نُقْطًا حَتَّى لَا تَفْسَدَ الْأَرْضُ
وَيَتَهَدَّمُ الْبُنْيَانُ، لَوْ كَانَ يَنْزِلُ كَأَفْوَاهِ الْقِرْبِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، لَكِنْ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ
أَنَّهُ أَنْزَلَهُ نُقْطًا.

وقوله: ﴿نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أَيِ: بِقَدَرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُنَزِّلْهُ
طُوفَانًا.

قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ فَسَّرَهُ رَحِمَةُ اللَّهِ: [أَيِ: بِقَدَرِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ] وَلَهُ مَعْنَى آخَرُ
﴿بِقَدَرٍ﴾ يَعْنِي: مُقَدَّرٌ مُحَدَّدٌ، حَتَّى النُّقْطَةُ قَدْ عَلِمَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَعَلِمَ كَيْفَ تَنْزِلُ،
وَعَلِمَ مَتَى تَنْزِلُ، وَعَلِمَ أَيْنَ تَنْزِلُ، كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ
بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا: أَنَّ هَذَا الْمَطَرَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى كَثَرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَدَدِ نِقَاطِهِ،
يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مُحَدَّدٍ، وَالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ الْمَفْسِّرُ مَعْنَى صَحِيحٌ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ هَذَا وَهَذَا،
وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَنَا فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْكَلِمَةَ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي السُّنَّةِ إِذَا كَانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ
عَلَى السَّوَاءِ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِمَا؛ تَوْسِعةً لِلْمَعْنَى.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾: (أَنْشَرْنَا) أَيِ: أَحْيَيْنَا، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى؛
فِي قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩] فَإِذَنْ (أَنْشَرْنَا) بِمَعْنَى: أَحْيَيْنَا،

وهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، تَجِدُ الْأَرْضَ قَاحِلَةً مُجْدِبَةً لَيْسَ فِيهَا خَضِرَاءٌ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ أَصْبَحَتْ تَهْتَزُّ مِنَ النَّبَاتِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مِثْلَ هَذَا الْإِحْيَاءِ ﴿تُخْرِجُونَ﴾، يَعْنِي: كَمَا أَحْيَيْنَا الْأَرْضَ بِالْمَطَرِ فَكَذَلِكَ نُحْيِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ هَامِدَةً، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: عَلَتْ بِنَبَاتِهَا، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ جَعَلَ لَنَا الْأَرْضَ مِهَادًا، وَلَوْ كَانَتْ صُلْبَةً مَا اسْتَقَرَرْنَا عَلَيْهَا، وَلَا حَرَثْنَاهَا، وَلَا انْتَفَعْنَا بِهَا كَثِيرًا، وَلَوْ كَانَتْ رِخْوَةً كَذَلِكَ لَمْ نَنْتَفِعْ بِهَا، وَلَعَاصَتْ أَقْدَامُنَا فِيهَا، وَلَكِنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَهَا كَالْمِهَادِ.

الفائدة الثانية: نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا بِمَا جَعَلَ لَنَا مِنَ الطُّرُقِ عَلَى تَبَاعُدِ أَقْطَارِهَا، وَنَسْتَدِلُّ عَلَى الطُّرُقِ بِالشُّعَابِ وَالْجِبَالِ، وَكَذَلِكَ بِالنُّجُومِ.

الفائدة الثالثة: إِثْبَاتُ حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيَمَا يَخْلُقُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِيَمَا يَخْلُقُ وَفِيَمَا يُشَرِّعُ ثَابِتَةً، لَكِنَّ مِنَ الْحِكْمِ مَا نَعْلَمُ، وَمِنْ الْحِكْمِ مَا لَا نَعْلَمُ؛ لِقُصُورِ أَفْهَامِنَا، وَمِنْ الْحِكْمِ مَا يَعْلَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَتُخْفَى عَلَى كَثِيرِينَ آخَرِينَ.

الفائدة الرابعة: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ الْحِسِّيُّ يَحْتَاجُ إِلَى طَرُقٍ، فَكَذَلِكَ الْمَقْصُودُ الْمَعْنَوِيُّ، وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى طَرُقٍ لَا بُدَّ أَنْ نَسْلُكَ هَذِهِ الطُّرُقَ حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْمَقْصُودِ، فَإِنْ لَمْ نَسْلُكْهَا فَلَنْ نَصِلَ إِلَى الْمَقْصُودِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: قُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنْ فَوْقٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَسْفَلٍ لَعَرِقَتِ الْأَرْضُ الشَّفْلَى دُونَ أَنْ يَصِلَ الْمَاءُ إِلَى قِمَمِ الْجِبَالِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ حَتَّى يَرَوِيَ الْعَالِي وَالنَّاسَ، وَإِذَا ارْتَوَى الْعَالِي نَزَلَ إِلَى النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا الْمَاءَ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ عَلَى الْمَعْنِينِ اللَّذِينَ ذَكَرْنَا هُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِهَذَا الْمَاءِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إِطْلَاقُ لَفْظِ (الْمَوْتِ) عَلَى مَا لَا رُوحَ فِيهِ -أَي: مَا لَا رُوحَ فِيهِ نُحْسٌ-؛ لِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتًا﴾ وَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ كَحَيَاةِ الْحَيَوَانِ -حَيَاةِ إِحْسَاسٍ- بَلْ هِيَ حَيَاةٌ نُمُوٌّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: قِيَاسُ الْمَعْقُولِ عَلَى الْمَحْسُوسِ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: قِيَاسُ الْغَائِبِ عَلَى الْحَاضِرِ، لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فَقَدْ قَاسَ الْغَائِبَ -وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى- عَلَى الْحَاضِرِ الَّذِي تُشَاهِدُونَهُ، وَهَذَا مِنْ طُرُقِ التَّعْلِيلِ وَالتَّفْهِيمِ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ الْقِيَاسِ، وَأَنَّهُ دَلِيلٌ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ ثَابِتٌ بِالْدَّلِيلِ السَّمْعِيِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَقْلَ يَتَقَلُّ مِنَ الْمَقِيسِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَقِيسِ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ بِاعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ بِهِ، وَدَلِيلٌ سَمْعِيٌّ لِثَبُوتِهِ شَرْعًا.



الآية (١٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢].

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ هذه عطفٌ على ما سبق، وهو من باب عطف الصفات، وليس من باب عطف الذوات، والأصل في العطف أن يكون بين متغايرين في ذاتهما - هذا أصل -؛ فإذا قام الدليل على أن الذات واحدة صار من باب عطف الصفات، اقرأ قول الله عزَّجَلَّ: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿ [الأعلى: ١-٤]، هذا العطف من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد، لكن الأصل في العطف أنه من باب تغاير الذوات، ما لم يقم دليل على أن المعطوف عليه شيء واحد، فيكون من باب عطف الصفات بعضها على بعض لموصوف واحد.

فالآيات التي معنا من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد.

وقوله: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾: ﴿ الْأَزْوَاجَ ﴾ بمعنى الأصناف، كما قال عزَّجَلَّ: ﴿ اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٨]، فقوله: ﴿ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصناف، كل الأصناف الخالق لها هو الله سبحانه وتعالى، وإنك لتعجب حينما تأتي إلى روضة

تَجِدُ هَذِهِ الْأَشْجَارَ بَعْضُهَا زَهْرُهَا أَحْمَرُ، وَبَعْضُهَا أَزْرَقُ، وَبَعْضُهَا أَصْفَرُ، مُلَوَّنَةً،
الَّذِي خَلَقَهَا وَلَوْهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَيُحْتَمَلُ فِي الْآيَةِ مَعْنَى آخَرُ: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يَعْنِي: الشَّيْئَيْنِ الْمُزْدَوَجَيْنِ
الَّذِينَ يَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا ثَالِثٌ، كَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالسَّالِبِ وَالْمُوجِبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ،
الْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا، وَهُمَا لَا يَتَنَافِيَانِ فَتُحْمَلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا.
وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ بِمَعْنَى: صَيَّرَ.

وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ مَفْعُولُ (جَعَلَ) أَيُّ: جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ، وَهِيَ السُّفُنُ
الْبَحْرِيَّةُ، وَكَانَ النَّاسُ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا فِيمَا سَبَقَ، وَأَمَّا الْآنَ فَجَاءَتِ السُّفُنُ الْجَوِّيَّةُ،
وَهِيَ الطَّائِرَاتُ، أَمَّا الْأَنْعَامُ فَمِثْلُ الْإِبِلِ وَالْبِغَالِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُرْكَبُ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أَيُّ: الَّذِي تَرْكَبُونَهُ. وَهَذِهِ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



الآيتان (١٣، ١٤)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤].

• • ❦ • •

قوله: ﴿ لِسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ اللام لامُ العاقبة، وليست لامُ التعليل؛ لأنه من الممكن أن يكون عند الإنسان أنعام كثيرة ولا يركبها، لكن اللام للعاقبة، تأتي اللام للعاقبة في القرآن الكريم وغيره كثيرًا، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُ إِذْ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ ليست للتعليل؛ لأن آلَ فِرْعَوْنَ لم يلتقطوه لهذا الغرض، لكن التلقطوه فصارت هذه النتيجة. وتسمى اللام في مثل هذا تسمى (لامُ العاقبة).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ أي: تعلوا عليها، وتستقرُّوا عليها، ﴿ عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ يقول المفسر رحمه الله: [ذكر الضمير وجمع الظهر؛ نظرًا للفظ (ما) ومعناها] ﴿ لِسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ جمع الظهر، ولم يقل: (على ظهره) وأفرد الضمير ولم يقل: (على ظهورها) نظرًا للفظ (ما) ومعناها؛ لأنَّ (ما) تصلح للمفرد والجمع، فتارة يُراعى اللفظ وتارة يُراعى المعنى، إذا روعي اللفظ أفرد الضمير، وإذا روعي المعنى صار بحسب المعنى المقصود.

وَكَذَلِكَ (مَنْ) تَارَةً يُرَاعَى اللَّفْظُ وَتَارَةً يُرَاعَى مَعْنَاهُ، اقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الطلاق: ١١]،
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ﴾ رَاعَى اللَّفْظَ فَأَفْرَدَهُ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ رَاعَى
الْمَعْنَى.

فَقَوْلُهُ: ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَي: ظُهُورِ مَا تَرْكَبُونَ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ،
فَجَمَعَ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى، وَأَفْرَدَهَا بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ يَتَذَكَّرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ؛
حَيْثُ يَسَّرَ لَهُ هَذَا الْمَرْكُوبَ، وَلَوْ لَا تَيْسِيرُ اللَّهِ مَا تَمَكَّنَ مِنْ هَذَا، فَلَوْ جَعَلَ اللَّهُ الْإِبِلَ
صَعْبَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُرَكَبَ مَا انْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا، وَلَوْ فُقِدَتِ الشُّفُنُ مَا اسْتَطَاعَ النَّاسُ
أَنْ يَعْبُرُوا مِنْ يَابِسٍ إِلَى يَابِسٍ، فَلْيَذْكُرِ الْإِنْسَانُ نِعْمَةَ اللَّهِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهِ.
﴿وَقُولُوا﴾ أَي: بِالْإِسْتِخْلَافِ مُعْتَرِفِينَ بِقُلُوبِكُمْ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أَي:
ذَلِكَ لَنَا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُطِيقِينَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٤] قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لْمُنْصَرِفُونَ].

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: نِعْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ؛ حَيْثُ جَعَلَ هُمْ مِنَ الْفُلْكِ
وَالْأَنْعَامِ مَا يَرْكَبُونَهُ.

وَذَكَّرَنَا أَنَّ الْفُلْكَ يَشْمَلُ الْفُلْكَ الْجَوِّيَّ وَالْبَحْرِيَّ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: وَالْبَرِّيَّ
أَيْضًا، كَالسَّيَّارَاتِ، فَهَذِهِ أَفْلَاكٌ؛ فَإِذِنْ الْأَفْلَاكُ جَوِّيَّةٌ وَبَحْرِيَّةٌ وَبَرِّيَّةٌ.

الفائدة الثانية: تَذَلُّلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الْأَنْعَامَ لَنَا؛ حَيْثُ سَخَّرَهَا لِرُكْبَتِهَا وَنَحْمَلَهَا،

وَهِيَ ذَلِيلَةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا، لَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا رَكِبَ الْأَنْعَامَ - وَكَذَلِكَ الْفُلْكَ - أَنْ يَجْعَلَ مَرْكَبَهُ مُرِيحًا؛ لَقَوْلِهِ: ﴿لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ إِذْ إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرِيحًا لَمْ تَتِمَّ النِّعْمَةُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَهُ مُرِيحًا بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، وَعَلَى حَسَبِ الْحَالِ.

الفائدة الرابعة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ لِمَا سَخَّرَ لَهُ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: (النِّعْمَةُ) هُنَا مُفْرَدٌ مُّضَافٌ، فَهَلِ الْمُرَادُ أَنْ نَذْكُرَ جَمِيعَ النِّعَمِ أَوْ نَذْكُرَ النِّعْمَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِلْحَالِ؟

الجواب: الظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ لَا يَسْتَحْضِرُ حِينَمَا يَتَذَكَّرُ كُلَّ النِّعَمِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَمْنِ وَالطَّمَانِينَةِ، وَلَكِنْ يَذْكُرُ النِّعْمَةَ الْحَاضِرَةَ.

الفائدة الخامسة: اسْتِحْبَابُ هَذَا الذِّكْرِ عِنْدَ الرُّكُوبِ وَهُوَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا اخْتِيرَ كَلِمَةُ (سُبْحَانَ) دُونَ (اللَّهُ أَكْبَرُ) مَثَلًا؟

فالجواب: أَنَّ تَسْبِيحَ اللَّهِ يَعْنِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، بِخِلَافِ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى الرُّكُوبِ فَهُوَ نَاقِصٌ، فَنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ حَتَّى إِنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ الْمَرْكُوبَاتِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَاجَةِ.

يَعْنِي لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: مَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيَّ! أَوْ اللَّهُ أَكْبَرُ!؟

فالجواب: أَنَّهُ لَمَّا رَأَى نَفْسُهُ مُحْتَاجًا إِلَى الرُّكُوبِ نَزَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْحَاجَةِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾.

الفائدة السادسة: أَنَّ نَذْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا بِتَسْخِيرِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ؛ لَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ:

﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أَي: مُطِيقِينَ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَخَّرَ الْبَعِيرَ لَنَا مَا أَطَقْنَاهَا، فَالْبَعِيرُ أَقْوَى مِنَّا، وَأَكْبَرُ مِنَّا جِسْمًا، لَوْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَهَا صَعْبَةً فَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلَيْهَا، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ أَنْ يُدْخِلَهَا إِلَى أَيِّ مَكَانٍ شَاءَ، أَوْ أَنْ يُخْرِجَهَا مَتَى شَاءَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ هَذَا لَنَا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: اعْتِرَافُ الْعَبْدِ بِقُصُورِهِ وَضَعْفِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أَي: مُطِيقِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَكِبَ هَذِهِ الْمَرْكُوبَاتِ يَتَذَكَّرُ الرُّكُوبَ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الدُّنْيَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ وَتَفْسِيرُ الْمَفْسَّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ هَا بِالْإِنْصِرَافِ أَي: (لِمُنْصِرِفُونَ إِلَى اللَّهِ) فِيهِ قُصُورٌ، وَالصَّوَابُ: مَا ذَكَرْنَا أَنَّكَ إِذَا رَكَبْتَ تَتَذَكَّرُ رُكُوبَكَ عَلَى النَّعْشِ حِينَ تَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيَكُونُ فِي هَذَا تَذَكُّرٌ لِلْحَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ لِبَنِي آدَمَ، وَهِيَ حَالُ الْإِنْقِلَابِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا الذِّكْرُ عَامٌّ، كُلَّمَا رَكَبْتَ السَّيَّارَةَ أَوْ الْبَعِيرَ أَوْ الطَّائِرَةَ تَذَكَّرْ هَذَا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٣﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْمَصْعَدُ الْكَهْرَبَائِيُّ يُشْرَعُ فِيهِ هَذَا الدُّعَاءُ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا)؟

فَالْجَوَابُ: هَذَا مُحَلٌّ نَظَرٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَصْعَدَ الْكَهْرَبَائِيَّ فِي مَنْزِلَةِ الدَّرَجِ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الرَّاكِبِ الَّذِي يَسِيرُ، بَلْ هَذَا يَصْعَدُ إِلَى فَوْقُ، فَفِي كَوْنِهِ مِنْ بَابِ الْمَرْكُوبَاتِ نَظَرٌ.

مَسْأَلَةٌ: دُعَاءُ نُزُولِ الْمَكَانِ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) هَلْ خَاصٌّ بِالسَّفَرِ أَوْ عَامٌّ؟

فالجواب: عامٌّ، حتَّى إِذَا نَزَلَتْ بَيْنًا تَقُولُ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، وعندَ النَّوْمِ تَقُولُ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، وفي أَوْرَادِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَقُولُ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ أَمَّا الْمَسْجِدُ فَلَهُ ذِكْرٌ خَاصٌّ، فالإنسانُ لَيْسَ نَازِلًا فِي الْمَسْجِدِ، إِنَّمَا هُوَ مُقِيمٌ لَطَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَيَمْضِي.



الآية (١٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ ﴾

[الزخرف: ١٥].

• • • • •

قَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ. أَيُّ: صَيَّرُوا ﴿ لَهُ ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أَيُّ: مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ عِبَادُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمُرَادُ بِالْعِبَادِ هُنَا: الْمَلَائِكَةُ ﴿ جُزْءًا ﴾ أَيُّ: بَعْضًا مِنْهُ، حَيْثُ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْيَهُودُ قَالُوا: عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ، وَالنَّصَارَى: قَالُوا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ جُزْءًا ﴾؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنْ أَبِيهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّمَا بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيئُهَا مَا رَأَيْتُنِي»^(١)، وَذَلِكَ حِينَمَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ فَأَنْكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وَقَالَ: «لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِنْتُ نَبِيِّ اللَّهِ مَعَ بِنْتِ عَدُوِّ اللَّهِ».

إِذِنْ: الْجُزْءُ الْبَعْضُ، وَالْقَائِلُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: الْمُشْرِكُونَ، وَالْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى.

فَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ -وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ- جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ كَوْنَهُمْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ يَمْنَعُ غَايَةَ الْمَنْعِ أَنْ يَكُونُوا جُزْءًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْمَعْبُودَ غَيْرُ الْعَابِدِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْعَابِدُ جُزْءًا مِنَ الْمَعْبُودِ.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ المرادُ الْجِنْسُ. يَعْنِي أَنْ جِنْسَ الْإِنْسَانِ ﴿لَكُفُورٌ﴾ بَيْنَ الْكُفْرِ، فَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنْ يُقَالَ: مِنَ الْإِنْسَانِ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ يَرَادُ بِهِ الْجِنْسُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وَالْمُؤْمِنُ لَيْسَ ظَلُومًا جَهُولًا، لَكِنَّ جِنْسَ الْإِنْسَانِ ظَلُومٌ جَهُولٌ.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكُفُورٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ: بَيْنَ الْكُفْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ (بَانَ) بِمَعْنَى (ظَهَرَ) تَكُونُ بِالْهَمْزَةِ وَتَكُونُ بِغَيْرِ الْهَمْزَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يُجَوِّزُ لَعَةً أَنْ تَقُولَ: بَانَ الْفَجْرُ، وَأَبَانَ الْفَجْرُ. وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿مُبِينٌ﴾ أَيُّ: وَاضِحُ الْكُفْرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يَقُولُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، أَوْ عِيسَى ابْنُ اللَّهِ، أَوْ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ. لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ كَفَرَ كُفْرًا بَيِّنًا.

وَتُسْتَعْمَلُ (أَبَانَ) بِالْهَمْزَةِ مَتَعَدِّيَّةً، يُقَالُ: أَبَانَ السَّيِّءُ بِمَعْنَى: أَظْهَرَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَمَّ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿الَّذِي سَبَقَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، أَيُّ: الْمُظْهِرُ لِلْحَقَائِقِ الْمُبِينِ هَذَا.﴾

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ كُلُّمَا جَاءَ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ نَحْمِلُهُ عَلَى الْجِنْسِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا نَحْمِلُهُ عَلَى الْجِنْسِ إِلَّا إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى هَذَا، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ الْعُمُومُ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، الْمُرَادُ كُلُّ الْإِنْسَانِ، لَكِنَّ إِذَا تَعَدَّرَ أَنْ نَحْمِلَهَا عَلَى الْعُمُومِ جَعَلْنَاهَا لِلْجِنْسِ، وَأَضْرَبُ لَكَ مَثَلًا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْمَقَامُ: الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ. الْمُرَادُ الْجِنْسُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الرِّجَالِ

خَيْرٌ مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنَ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ،
لَكِنَّ الْمُرَادَ الْجِنْسُ. يَعْنِي: هَذَا الْجِنْسُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ.

وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَدَأَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا﴾، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، ثُمَّ قَالَ عَرَّجَلٌ:
﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَفْكَاءِ جَعَلٌ، جَعَلٌ، جَعَلٌ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهَا﴾ وَجَعَلُوا لَهُ، مِنْ
عِبَادِهِ جُزْءًا ﴿فَهَلْ هُنَاكَ تَنَاسُبٌ بَيْنَ هَذِهِ؟

فَالْجَوَابُ: يُقَالُ: إِنَّ هَذَا تَنَاسُبٌ لَفْظِيٌّ؛ لِأَنَّهُ أَحْيَانًا يَكُونُ الْكَلَامُ - إِذَا كَانَ
عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ - أَبْلَغَ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاسُبِ اللَّفْظِيِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ وَالِدِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ، مِنْ عِبَادِهِ،
جُزْءًا﴾؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ فِي التَّعْصِيبِ فِي بَابِ الْمِيرَاثِ مُقَدَّمًا عَلَى الْوَالِدِ، بِمَعْنَى:
أَنَّهُ لَوْ مَاتَ مِيتٌ عَنْ أَبِيهِ وَابْنِهِ، فَلَأَبِيهِ السُّدُسُ فَرَضًا، وَالْبَاقِي لِلابْنِ تَعْصِيًّا،
فَسَهْمُ الْابْنِ الْآنَ خَمْسَةٌ مِنْ سِتَّةٍ، وَسَهْمُ الْأَبِ وَاحِدٌ مِنْ سِتَّةٍ؛ لِأَنَّ الْابْنَ جُزْءٌ مِنْ
أَبِيهِ فَقُدِّمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْأَبِ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ؛ لِأَنَّ وَلَدَهُ جُزْءُهُ،
وَإِذَا كَانَ جُزْءًا مِنْهُ، صَارَ كَسَائِرِ جَسَدِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنْتَ وَمَالُكَ
لِأَبِيكَ»^(١) فَلِلْأَبِ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا شَاءَ، بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ الْوَلَدُ مُحْتَاجًا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِلَيْهِ، أَوْ تَتَعَلَّقَ بِهِ نَفْسُهُ، فَمَثَلًا إِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِبْنِ أُمَةٌ قَدْ تَسَرَّاهَا وَتَعَلَّقَتْ بِهَا نَفْسُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَبِ أَنْ يَتَمَلَّكَهَا، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطَّأَهَا؛ لِأَنَّهَا حَلِيلَةُ ابْنِهِ، لَكِنْ حَتَّى: وَلَا التَّمْلُكُ؛ لِأَنَّ حَاجَتَهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا.

وكَذَلِكَ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِمَالِهِ ضَرُورَةٌ، كَابْنٍ عِنْدَهُ مَالٌ أَعَدَّهُ لِلْمَهْرِ حِينَ يَتَزَوَّجُ، فَلَيْسَ لِلْأَبِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، كَذَلِكَ لَوْ كَانَ عِنْدَهُ سَيَّارَةٌ أَعَدَّهَا لِحَاجَتِهِ وَضَرُورَتِهِ، فَلَيْسَ لِلْأَبِ أَنْ يَتَمَلَّكَهَا، إِنَّمَا يَتَمَلَّكُ الْفَضْلَ فَقَطْ، دَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ عُتُوِّ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حَيْثُ جَعَلُوا الَّذِي ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُؤًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: ٣-٤]﴾ جَعَلُوهُ وَالِدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَتِهِ كَفُورٌ مُبِينٌ، هَذَا إِذَا جَعَلْنَا (الْإِنْسَانَ) لِلْجِنْسِ، أَمَّا إِذَا جَعَلْنَا (الْإِنْسَانَ) يَعُودُ عَلَى الَّذِي جَعَلَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، فَإِنَّهُ يَكُونُ خَاصًّا، لَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ هُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فَأَصْلُ الْإِنْسَانِ الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ إِلَّا أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.



(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٢٧/٥)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (٣١٣/١)، وابن ماجه رقم (٢٣٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (١٦)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾ ﴾

[الزخرف: ١٦].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾: ﴿ أَمِ ﴾ هُنَا مُنْقَطِعَةٌ، بِمَعْنَى بَلْ وَالْهَمْزَةُ، وَاعْلَمْ أَنَّ (أَمْ) تَأْتِي مُتَّصِلَةً إِذَا كَانَتْ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَسَاوَيْنِ، وَمُنْقَطِعَةً إِذَا كَانَ مَا بَعْدَهَا مُنْقَطِعًا عَمَّا قَبْلَهَا، فَفِي قَوْلِهِ: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ [البقرة: ٦] هَذِهِ مُتَّصِلَةٌ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَمْ ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، الْمُنْقَطِعَةُ يُقَدَّرُهَا النَّحْوِيُّونَ بِ(بَلْ) وَالْهَمْزَةُ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ أَمِ ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ، وَالْقَوْلُ مُقَدَّرٌ، أَيُّ: أَتَقُولُونَ ﴿ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ لِنَفْسِهِ ﴿ وَأَصْفَنَكُمْ ﴾ أَخْلَصَكُمْ ﴿ يَالْبَنِينَ ﴾ اللَّازِمِ مِنْ قَوْلِكُمْ السَّابِقِ فَهُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْمُنْكَرِ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ ﴾ قَدَرُهُ الْمَفْسِّرُ بِمَعْنَى: (بَلْ يَقُولُونَ)، وَلَا حَاجَةَ لِهَذَا التَّقْدِيرِ، بَلْ هُوَ كَلَامٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَنْكَرَ عَلَى هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: بَلْ عَلَى قَوْلِكُمْ: ﴿ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، ﴿ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾ يَعْنِي: أَخْلَصَكُمْ بِالْبَنِينَ وَخَصَّكُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: الْبَنَاتُ لِلَّهِ، وَالْبَنُونَ لَنَا. فَهَلْ هَذَا عَدْلٌ، هَلْ هَذَا حَقٌّ؟!

الجواب: هَذَا مُنْكَرٌ وَجَوْرٌ، عَلَى الْأَقْلَلِ لَوْ قَالُوا: إِنَّهُمْ سَوَاءٌ لَكَانَ أَهْوَنَ، مَعَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ، لَكِنْ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ ۖ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ هَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ.

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ فَالْهَمْزَةُ إِذَنْ مُقَدَّرَةٌ لِلْإِنْكَارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْإِنْكَارُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ كَيْفَ يَكُونُ الْمَخْلُوقُ وَلَدًا لِلْخَالِقِ؟! وَهَذَا قَالَ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ مُنْفَصِلَ بَائِنٍ عَنِ الْخَالِقِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِشَارَةُ إِلَى جَوْرِ أَوْلِيَّكَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ يَعْنِي: أَيْعَقِلُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا!!



الآية (١٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧].

• • • • •

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ ﴾ يَعْنِي: بِذَلِكَ قُرَيْشًا وَأَشْبَاهَهُمْ مِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْبَنَاتِ وَيَتَذَوْنَهُنَّ.

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ ﴾ أَي: أَخْبِرَ بَأَنَّهُ وُلِدَ لَهُ بِنْتٌ ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾.

وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿ ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾؛ لِأَنَّهَا سَبَقَهَا ذِكْرُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ. فَضَرَبُوهَا مَثَلًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِهَذَا الَّذِي ضَرَبَهُ مَثَلًا لِلرَّحْمَنِ ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أَي: صَارَ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا.

و(ظَلَّ) هُنَا بِالظَّاءِ الْمُشَاةِ؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى: صَارَ، أَمَّا (ضَلَّ) الَّتِي هِيَ بِالضَّادِ فَهِيَ بِمَعْنَى: تَاهَ وَضَاعَ، تَقُولُ: ضَلَّ الطَّرِيقَ. بِمَعْنَى: تَاهَ وَضَاعَ. أَمَّا ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ فَهُوَ بِمَعْنَى صَارَ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا. أَي: بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْيَضَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ هَذِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَمْ فِي الدُّنْيَا؟

فالجواب: لا، في الدنيا.

وقوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء غيظًا وحزنًا.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ جعل له شبهًا ينسب البناة؛ لأن الولد يشبه الوالد، والمعنى: إذا أخبر أحدهم بالبنت تولد له، ﴿ظَلَّ﴾ صار، ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ متغيرًا تغير مُغْتَمَّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مُتَمَلِّئٌ غَمًّا، فكيف ينسب البناة إليه تعالى عن ذلك]، وهذا معنى ما تكلمنا فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ذكر حال هؤلاء عندما يُبشرون بالبناة: أن الواحد منهم يتغير ظاهره وباطنه، ظاهره في اسوداد وجهه، وباطنه بامتلائه ظنًا.

الفائدة الثانية: التنديد التام بهؤلاء؛ حيث إنهم إذا بُشروا بالأنثى صارت لهم هذه الحال، وهم يدعونها للخالق عز وجل.

الفائدة الثالثة: إثبات اسم الرحمن لله سبحانه وتعالى، والرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة، وهذا الاسم الكريم تُكرهه قريش، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾، ولما أراد النبي أن يكتب كتاب الصلح في الحديبية وقال للكاتب: «اكتب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(١) أبى رسول قريش وقال: إننا لا نعرف الرحمن، ولكن اكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. وليس هذا من باب التنزل، ولكن من باب التأليف وإمضاء المعاهدة.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ تَشْمَلُ الْكَافِرِينَ، فَلَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مَا بَقِيَ الْكَافِرُ لِحُظَّةٍ
وَاحِدَةً، فَالْكَافِرُ مَرْحُومٌ، وَالْمُؤْمِنُ مَرْحُومٌ، لَكِنَّ الْفَرْقَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَرْحُومٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَالْكَافِرُ مَرْحُومٌ فِي الدُّنْيَا، قَدْ أَغْدَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّعْمَ، وَعَجَّلَ لَهُ الطَّيِّبَاتِ،
لَكِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ يُعَامَلُ بِالْعَدْلِ، وَيُجَازَى بِمَا يَسْتَحِقُّ.

إِذَنْ نَقُولُ: الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ تَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَالْخَاصَّةُ تَخْتَصُّ بِالْمُؤْمِنِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَغْيِيرُ الْبَشَرَةِ بِمَا يَسُرُّ أَوْ يَسُوءُ، فَإِذَا بُشِّرَ الْإِنْسَانُ بِمَا يَسُرُّ فَإِنَّ
وَجْهَهُ يَبْرُقُ مِنَ السُّرُورِ، وَتُحَسُّ بِأَنَّهُ مَسْرُورٌ بِهِ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ الْجِسْمَ تَبِعٌ لِلْقَلْبِ، فَإِذَا اسْتَنَارَ الْقَلْبُ وَفَرِحَ
فكَذَلِكَ الْجِسْمُ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَرْضَوْنَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يَتَغَيَّرُونَ ظَاهِرًا
وَبَاطِنًا، ظَاهِرًا بِاسْوَدَادِ الْوُجُوهِ، وَبَاطِنًا بِالْامْتِلَاءِ ظَنًّا.



الآية (١٨)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾﴾

[الزخرف: ١٨].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، و(مَن) اسم موصول يعني: أو الذي يُنشأ في الحلية أي: يُربى فيها ويحتاج إليها.

وقوله: ﴿أَوْمَن﴾ يقول المفسر رحمه الله: [همزة الإنكار، واو العطف بجُملة أي: يجعلون لله ﴿يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾] يعني: أن العطف هنا على تقدير يجعلون، بقي عندنا: أين المعادل؟ المعادل كمن ليس كذلك.

ومعنى ﴿يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُربى ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ قال المفسر: [أي: الزينة] ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ عند الخصومة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير مظهر للحجة؛ لضعفه عنها بالأنوثة].

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: مظهر لما في نفسه يعني: كمن ليس كذلك. والإشارة بهذا الوصف إلى الأنثى؛ لأن الأنثى تُنشأ في الحلية وتُحلى لتجمل فتحتاج إلى ما يكملها، وهي أيضاً ليست ذات خصومة، بل هي في الخصام غير مبين، كمن ليس كذلك.

فالمرأة ليست جميلة بذاتها، ولكنها محتاجة إلى ما يُجملها، ولهذا تجد عند النساء

مِنَ الْمَوْضَاتِ، كَمَنْ لَيْسَ هُنَّ إِلَّا الْمَوْضَاتُ وَالتَّجْمُلُ وَالتَّحْسِينُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا بِنَفْسِهَا قَاصِرَةٌ، كَذَلِكَ أَيْضًا بِقَوْلِهَا قَاصِرَةٌ: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عِنْدَ الْمَخَاصِمَةِ تَكُونُ مَغْلُوبَةً لَا تُظْهَرُ الْحُجَّةُ؛ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ بِالْأُثُوَّةِ.

بَقِيَ: مَا هُوَ الْمُقَابِلُ؟ ﴿أَوْ مَنْ يُنْشَأُ﴾ لَا بُدَّ مِنْ مُقَابِلٍ: كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، أَيْ: كَمَنْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُنْشَأَ فِي الْحَلِيَّةِ، وَكَمَنْ هُوَ فِي الْخِصَامِ مُبِينٌ، وَهُوَ الذِّكْرُ، الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يُضَيِّفُ لَوْمًا إِلَى لَوْمٍ عَلَى هَؤُلَاءِ حَيْثُ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْقَاصِرَ فِي مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُمُ الْكَامِلَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: قُصُورُ الْمَرَأَةِ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَاوِيَ الرَّجُلَ فِي عَقْلِهَا وَدَلَّهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ...﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الفائدة الثانية: أَنَّ الْمَرَأَةَ لَيْسَ لَهَا هُمُّ إِلَّا التَّجْمُلُ وَالْعِنَايَةُ بِمَظْهَرِهَا.

الفائدة الثالثة: أَنَّ الْمَرَأَةَ لَيْسَتْ ذَاتَ خِصَامٍ، بَلْ هِيَ ضَعِيفَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخَاصِمَ وَلَا تُبَيِّنَ مَا فِي قَلْبِهَا مِنَ الْحُجَّةِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا تَوَلَّتْ بِنْتُ كِسْرَى عَلَى الْفُرْسِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(١).

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» هَلْ هَذَا خَاصٌّ بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ، بِمَعْنَى: أَنَّ هَؤُلَاءِ لَنْ يُفْلِحُوا؛ لِأَنَّهُمْ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ، أَوْ أَنَّ هَذَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ وَلَّى أَمْرَهُ امْرَأَةً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤٤٢٥)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى الْعُمُومِ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» قُلْنَا: هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ قَوْمٍ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ، وَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ قُلْنَا: إِنَّهُ خَاصٌّ. وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْوَاقِعِ فَهَلِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَتَوَلَّى أُمُورَ الرِّجَالِ هَلْ تُفْلِحُ؟

الجواب: إِنْ أَفْلَحَتْ فَذَلِكَ بِمَعُونَةِ الرِّجَالِ، أَوْ فَلَاحٌ نِسْبِيٌّ؛ يَعْنِي: امْرَأَةٌ مَثَلًا تَكُونُ رَئِيسَةً وَزَارَةً، لَنْ يُفْلِحَ قَوْمُهَا إِلَّا بِمُسَانَدَةِ الرِّجَالِ لَهَا، هَذِهِ وَاحِدَةٌ، أَوْ يُقَالُ: هُوَ فَلَاحٌ نِسْبِيٌّ، فَلَوْ تَوَلَّى غَيْرَهَا مِنَ الرِّجَالِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ أَفْلَحَ لَهُمْ.

وكَذَلِكَ أَيْضًا لَنْ يُفْلِحُوا إِذَا وَلَّوْا أَمْرَهُمْ فِي غَيْرِ الرِّئَاسَةِ كَالْوَزَارَةِ مَثَلًا، لَنْ يُفْلِحُوا، وَمَنْ عَرَفَ النِّسَاءَ وَكَثْرَةَ خُصُومِهِنَّ وَمَشَاكِلهِنَّ إِذَا تَوَلَّوْا حَتَّى إِدَارَةَ مَدْرَسَةٍ؛ عَرَفَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَصْلُحُ إِطْلَاقًا لِلْوِلَايَةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى بَنِي جِنْسِهَا، فَهَذَا رُبَّمَا؛ لِأَنَّ الضَّعِيفَ لِلضَّعِيفِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانَتِ النِّسَاءُ لَا تَكْمُلُ بِذَاتِهَا، وَلَا بِالْفِعَالِ، وَلَا بِالْمَقَالِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الرِّجَالَ كَمَّلُوا، وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢] يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْقُنُوتَ وَالْعِبَادَةَ فِي الرِّجَالِ أَكْثَرُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعُ: آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٧٦٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلُّ هَذَا نُرِيدُ أَنْ يَبْقَى فِي أَذْهَانِنَا أَنَّ الْمَرْأَةَ قَاصِرَةٌ، وَأَنَّ مَنْ يُحَافِلُونَ أَنْ يَجْعَلُوهَا
كَالرِّجَالِ؛ فَإِنَّهُمْ مُحَافِلُونَ لِلْفِطْرَةِ وَالطَّبِيعَةِ، كَمَا أَنَّهُمْ مُحَافِلُونَ لِلشَّرِيعَةِ.

خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، يَوْمَ الْفَرَحِ وَالشُّرُورِ، وَبَيْنَ حَاهُنَّ فَقَالَ:
«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ^(١) مَعَ
أَنَّهُ يَوْمُ فَرَحٍ وَيَوْمُ سُرُورٍ، كَانَ مِنَ الْمَتَوَقَّعِ أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ الشُّرُورَ،
لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ حَاهُنَّ الْآنَ، أُولَئِكَ الْقَوْمُ مِنَ الْكُفَّارِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ سَاوَوْا
النِّسَاءَ بِالرِّجَالِ فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ أَحْوَاهُمْ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ، وَغَيْرُ تَامَةٍ، مَعَ أَنَّهُمْ لَنْ
يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُلْحِقُوا النِّسَاءَ بِالرِّجَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب
الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئْنَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنَّبُ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

• • • • •

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ الضمير يعود على المشركين، ومعنى: ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ أي: صيروا؛ ولذلك نصبت مفعولين ﴿ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ ﴾ الذين أمّوا العبودية على الوجه الأكمل؛ حيث وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئْنَا ﴾ وذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله. انظروا هذا الافتراء!

أولاً: افترؤا بأنهم بنات الله.

ثانياً: افترؤا بأنهم بنات، وما يذريهم أن الملائكة بنات؟ لكن لما كان وصف الأئوثة وصفاً رديئاً - عندهم - قالوا: هم إناث والبنون لهم.

وقال الله عز وجل منكرًا عليهم: ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ يعني: أحضروا خلقهم، وعرفوا أنهم إناث، والاستفهام هنا للإنكار أو للتحدّي. يعني: أن الله أنكر عليهم، أو تحداهم هل حضروا أو لا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿سَتُكَنَّبُ شَهَدَتُهُمْ﴾ بِأَنَّهُمْ إِنَاثٌ ﴿سَتُكَنَّبُ﴾ تُكَنَّبُ عَلَى أَنَّهُا فَرِيَّةٌ وَشَهَادَةُ زُورٍ، وَيُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا، وَالسَّيْنُ هُنَا لِلتَّقْرِيبِ وَالتَّحْقِيقِ، وَتُكَنَّبُ لَمْ يُبَيَّنْ فَاعِلُ الْكِتَابَةِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، هَلْ يَكْتُبُهَا اللَّهُ أَوِ الْمَلَائِكَةُ؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُوَكَّلُونَ بِعَمَلِ بَنِي آدَمَ يَكْتُبُونَ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عَنْهَا فِي الْآخِرَةِ فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْعِقَابُ].
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ» عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ كَيْفَ نَفَسَرُ عَنْده؟
فَالْجَوَابُ: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَانُ افْتِرَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:
الوجه الأول: أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وَمَا يُدْرِيهِمْ؟!
الوجه الثاني: أَنَّهُمْ نَسَبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.
الفائدة الثانية: تَحْدِيدُ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وَالْجَوَابُ: لَا.
الفائدة الثالثة: تَهْدِيدُ أُولَئِكَ الْمُفْتَرِينَ بِأَنَّ شَهَادَتَهُمْ سَتُكَنَّبُ، وَيُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَتُكَنَّبُ شَهَدَتُهُمْ﴾.

الفائدة الرابعة: إِثْبَاتُ الْحِسَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾.
الفائدة الخامسة: أَنَّ أَقْوَالَ الْإِنْسَانِ تُكَنَّبُ عَلَيْهِ كَأَفْعَالِهِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ هُنَا بِالْقَوْلِ.

الآية (٢٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ فِعْبَادَتُنَا إِيَّاهُمْ بِمَشِيئَتِهِ، فَهُوَ رَاضٍ بِهَا...] إِلَى آخِرِهِ.

﴿ وَقَالُوا ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾: ﴿ لَوْ ﴾ هَذِهِ حَرْفُ امْتِنَاعٍ لَا مِتْنَاعَ ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ لَكِنَّا عَبْدَانَاهُمْ لَمَشِيَّةِ اللَّهِ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ فَإِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ الْمَلَائِكَةَ فَقَدْ تَنَاقَضُوا، وَإِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ الْأَصْنَامَ، فَهَذَا لَهُ كَلَامٌ آخَرُ، إِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ الْمَلَائِكَةَ فَهُمْ قَالُوا: ﴿ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ مَعَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَانًا، وَكَانَ مُقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَقُولُوا: (مَا عَبْدَانَاهُنَّ) فَيَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ضَمِيرَ مُؤَنَّثٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ ﴿ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أَيِ: مَا عَبْدَانَا أَهْلَنَا؛ فَلَا إِشْكَالَ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾: ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ الْقَوْلِ مِنَ الرِّضَا بِعِبَادَتِهَا ﴿ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ ﴾ أَيِ: مَا هُمْ ﴿ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يَكْذِبُونَ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ بِهِمْ].

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾: ﴿ مِنْ ﴾ هُنَا تُعَرَّبُ زَائِدَةٌ إِعْرَابًا،

لِكِنَّهَا فِي الْمَعْنَى مُفِيدَةٌ، تُفِيدُ التَّوَكِيدَ، وَلَوْ لَا الْقُرْآنُ لَكَانَ السِّيَاقُ: (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ عِلْمٌ)، لَكِنْ تَزَادُ الْحُرُوفُ لِلتَّوَكِيدِ؛ لِلتَّوَكِيدِ النَّفْيِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَعْنِي: أَنْ قَوْلَهُمْ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ قَوْلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحَرْصِ وَالظَّنِّ، وَالْمُحَاجَّةِ بِالْبَاطِلِ، وَإِلَّا فَهُمْ عَمِلُوا وَعَبَدُوا بِدُونِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ الْمَكْتُوبُ إِلَّا إِذَا وَقَعَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ هَؤُلَاءِ احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ فَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾.
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بُطْلَانُ الْاِحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.
وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الْاِحْتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدُوهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فَهَذَا الْقَوْلُ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الْاِحْتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَشَاءُ كُلَّ شَيْءٍ، كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ وَاقِعٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَكِنْ لَا حُجَّةَ بِشَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ؛ إِذْ إِنَّكَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مُقَدَّرٌ عَلَيْكَ إِلَّا إِذَا وَقَعَ، فَالْقَدَرُ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا إِذَا وَقَعَ الْمَقْدُورُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَشَاءُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، فَالْقَدَرِيَّةُ -وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ- يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ خَالِقُ عَمَلِهِ، مُرِيدُ لَهُ، مُسْتَقِلٌّ بِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا إِرَادَةَ لَهُ بِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وَتَقُولُونَ أَنْتُمْ: لَا؟!

قَابَلَهُمْ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهُمْ الْجَبَرِيَّةُ، وَقَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ وَّاقِعٌ فَهُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالْإِنْسَانُ مُجْبَرٌ عَلَى الْعَمَلِ وَلَيْسَ مُخْتَارًا، وَهَذَا أَيْضًا قَوْلٌ بَاطِلٌ، وَكُلُّ يَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفِعْلِ الْاِخْتِيَارِيِّ وَبَيْنَ الْفِعْلِ الْاضْطِرَّارِيِّ، فَكُلُّ يَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَنْزَلَ الْإِنْسَانُ مِنَ السَّطْحِ مِنْ عَلَى الدَّرَجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَبَيْنَ أَنْ يَتَدَخَّرَ بِدُونِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ. وَهُمْ -أَعْنِي: الْجَبَرِيَّةَ- يَقُولُونَ: إِنَّ الْكُلَّ سَوَاءٌ، يَنْزِلُ بِاخْتِيَارٍ، أَوْ يَتَدَخَّرُ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ، الْكُلُّ سَوَاءٌ، وَمَا حَرَكَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا كَحَرَكَةِ السَّعْفَةِ فِي الرِّيحِ.

وَهَذَا أَيْضًا قَوْلٌ بَاطِلٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ، وَلَا أَنْ تَقُومَ بِهِ مِلَّةٌ، وَلَا أَنْ تَقُومَ بِهِ دُنْيَا وَلَا أُخْرَى، وَإِلَّا لَقُلْنَا: كُلُّ إِنْسَانٍ يَتَسَلَّطُ عَلَى آخَرٍ، ثُمَّ يَقُولُ: هَذَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، مَا أَمْلِكُ، هَلْ يَرْضَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَأْتِيَ شَخْصٌ وَيَرْضَهُمْ رَضًا، ثُمَّ يَقُولُ: هَذَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟

الْجَوَابُ: لَا أَحَدٌ يَرْضَى بِذَلِكَ، وَلَمَّا أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُقَطَعَ يَدُ السَّارِقِ قَالَ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ مَا سَرَقْتُ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ. قَالَ: وَنَحْنُ لَا نَقْطَعُ يَدَكَ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ.

فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُخْتَارٌ، وَلَهُ إِرَادَةٌ تَامَّةٌ بِهَا يَفْعَلُ، لَوْ أَنَّا قُلْنَا بِقَوْلِ الْجَبَرِيَّةِ لَكَأَنَّتْ عُقُوبَةُ اللَّهِ لِلْمُجْرِمِينَ ظُلْمًا؛ لَأَتَّهَمُ سَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا فَعَلْنَا هَذَا بِغَيْرِ اخْتِيَارِنَا، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ فَهُمْ أَيْضًا مُحْطِئُونَ.

وَهَذَا يُسَمَّى هَؤُلَاءِ الْقَدَرِيَّةَ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لَأَتَّهَمُ جَعَلُوا لِلْحَوَادِثِ خَالِقِينَ، حَوَادِثُ بَشَرِيَّةٍ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ، وَحَوَادِثُ إِلَهِيَّةٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَسَمُّوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ الْمَجُوسَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَوَادِثَ لَهَا خَالِقَانِ: الشَّرُّ تَخْلُقُهُ الظُّلْمَةُ،

وَالنُّورُ يَخْلُقُ الْخَيْرَ، هَذِهِ عَقِيدَةُ الْمَجُوسِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ:

وَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ^(١)

ظَلَامُ اللَّيْلِ ظُلْمَةٌ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَمْدُوحُ لَكَ الْكَرَمُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

فَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ صَحِيحٌ لَكِنْ لَيْسَ حُجَّةً؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمُحْتَجَّ بِالْقَدَرِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ. وَكَيْفَ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ عِلْمٌ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؟

فَالْجَوَابُ: هُوَ إِنَّمَا عِلْمٌ بَعْدَ الْوُقُوعِ، لَكِنْ قَبْلَ الْوُقُوعِ لَا يُعْلَمُ؛ إِذَنْ لَا حُجَّةَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْحُجَّةَ دَلِيلٌ، وَالدَّلِيلُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْبِقَ الْمَدْلُولَ، فَعِلْمُهُمْ لَا حَقَّ، وَلَيْسَ بِسَابِقٍ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَذِبِ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أَيُّ: يَكْذِبُونَ. وَلَنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بِمَعْنَى يَظُنُّونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الْجاثية: ٢٤].



الآية (٢١)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ ءَانَيْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾

[الزخرف: ٢١].

• • •

ثُمَّ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ أَمْ ءَانَيْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي: القرآنَ بِعِبَادَةِ
غَيْرِ اللَّهِ ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾].

﴿ أَمْ ءَانَيْتُمْ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ بِمَعْنَى (بَلْ)، وَهَمْزَةٌ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَالْمَعْنَى: بَلْ هَلْ
نَحْنُ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِ الْقُرْآنِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ؟

الْجَوَابُ: لَا، لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ، فَأَوَّلُ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى الْعَرَبِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ آخِرُ
كِتَابٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ مِنَ الْعَرَبِ رَسُولٌ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا قَالَ اللَّهُ فِي دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَلِهَذَا لَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: هَلْ فِي الْعَرَبِ رَسُولٌ سِوَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛
لَقُلْنَا: لَا، لَا يُوجَدُ إِلَّا وَاحِدٌ.

﴿ أَمْ ءَانَيْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾؟

الْجَوَابُ: لَا.

من فوائد الآية الكريمة :

الفائدة الأولى: تَكَرَّارُ الْحُجَجِ بِقَدْرِ انْكَارِ الْحُصْمِ، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَتْ الْحُجَجُ
ازْدَادَ الْأَمْرُ قُوَّةً.

الفائدة الثانية: أَنْكَ إِذَا أَتَيْتَ بِدَلِيلٍ مُقْنِعٍ فَلَا لَوْمَ عَلَيْكَ، إِذَا أَتَيْتَ بِدَلِيلٍ آخَرَ
وَتَالِثٍ، مَا دَامَ الْمَقَامُ يَفْتَضِي ذَلِكَ، أَنْظِرُوا إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ، وَبِالْأَخْصِ
شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَتَلْمِيزُهُ ابْنَ الْقَيْمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - كَيْفَ يَأْتُونَ بِالْأَدِلَّةِ مُتَتَابِعَةً
مُتَكَثِرَةً مَعَ أَنَّ الْمَدْلُولَ يُمَكِّنُ أَنْ يَثْبُتَ بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ؟

والجواب: أَنَّ هَذَا مِنْ أَجْلِ التَّقْوِيَةِ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ لَهُ كِتَابٌ اسْمُهُ (التَّسْعِينِيَّةُ
فِي الرَّدِّ عَلَى الْأَشْعَرِيَّةِ) الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ، أَبْطَلَ
رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ تِسْعِينَ وَجْهًا، وَيَكْفِي فِي إِبْطَالِهِ وَجْهٌ وَاحِدٌ، يَعْنِي: كُلَّمَا
تَكَرَّرَتِ الْأَدِلَّةُ قَوِيَّتِ الْحُجَّةُ.

أَرَأَيْتُمُ الْآنَ فِي الْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ لَوْ أَنَّ شَخْصًا أَتَى وَأَخْبَرَكُمْ بِخَبَرٍ وَهُوَ ثِقَّةٌ
عِنْدَكُمْ صَدَّقْتُمُوهُ، فَإِذَا جَاءَ آخَرُ أَزْدَادَتِ الثَّقَةُ، وَإِذَا جَاءَ ثَالِثُ أَزْدَادَتِ الثَّقَةُ؛ وَهَذَا
قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ الْمُتَوَاتِرَ يُفِيدُ الْقَطْعَ؛ لَكثْرَةِ مَنْ رَوَاهُ، الْمُتَوَاتِرُ يَعْنِي: الْحَدِيثُ
الَّذِي يَأْتِي مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ عَلَى الْعَرَبِ كِتَابٌ سِوَى الْقُرْآنِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿ أَمْ أَلَيْسَ لَكُمْ كِتَابٌ مِّن قَبْلِهِ ﴾.

الفائدة الرابعة: مِنْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْعَرَبِ؛ حَيْثُ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا وَاحِدًا
هَدَايَةً لِلخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَيْنَمَا الرُّسُلُ الْآخَرُونَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْكُتُبُ

هَدَايَةً لِّأَقْوَامِهِمْ، فَهِيَ -أَي: الْكُتُبُ- هَدَايَةٌ فِي قَوْمٍ مُّعَيَّنِينَ، وَفِي وَقْتٍ مُّعَيَّنٍ، لَكِنَّ هَذَا الْكِتَابَ -جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ- نَازِلٌ صَالِحًا لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ.



الآية (٢٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢].

• • • • •

﴿ بَلْ ﴾ هَذِهِ لِلْإِضْرَابِ، إِضْرَابُ انْتِقَالٍ، يَعْنِي: انْتَقَلُوا إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ، قَالُوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أَيُّ: عَلَىٰ مِلَّةٍ، وَإِنَّا مَاشُونَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ، مُّهْتَدُونَ بِهِمْ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ.

هَذِهِ حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِهِمْ، احْتَجُّوا فِي الْأَوَّلِ بِالْقَدَرِ، الْآنَ احْتَجُّوا بِالْقُدُودَةِ، قَالُوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ نَتَكَلَّمُ عَلَىٰ مَعْنَى (أُمَّةٍ)، يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِلَّةٌ] وَقَدْ ذَكَرْنَا قَرِيبًا أَنَّ (أُمَّةً) فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ عِدَّةٍ مَعَانٍ:

١ - أَنَّهَا تَكُونُ بِمَعْنَى: إِمَامٍ، مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ [النحل: ١٢٠].

٢ - تَكُونُ بِمَعْنَى: وَقْتٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَادَّكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

٣ - تَكُونُ بِمَعْنَى: طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾.

٤ - تَكُونُ بِمَعْنَى الدِّينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أَيُّ: عَلَىٰ مِلَّةٍ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَأْتِي لِعِدَّةٍ مَعَانٍ مَا الَّذِي يُعَيِّنُ الْمَعْنَى؟
 فالجواب: السياق، وقرائن الأحوال، إِذَا قُلْتَ لِرَجُلٍ غَنِيٌّ: الْبَسِ الْعَبَاءَةَ.
 وَلِرَجُلٍ فَقِيرٍ: الْبَسِ عَبَاءَةً. هَلْ تَخْتَلِفُ الْعَبَاءَتَانِ؟ الْأَوَّلُ: الْغَنِيُّ يَعْنِي: الْبَسِ عَبَاءَةً
 غَنِيٌّ، وَالثَّانِي: الْبَسِ عَبَاءَةً فَقِيرٍ. اخْتَلَفَ الْمَعْنَى لِحَالِ الْمُخَاطَبِ، فَاْلْمُهْمُ أَنَّ الَّذِي
 يُعَيِّنُ الْمَعْنَى هُوَ السِّيَاقُ.

وَمِنْ ثَمَّ قُلْنَا: إِنَّهُ لَا مَجَازَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِطْلَاقًا، وَلَا فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا، وَالْمَسْأَلَةُ
 هَذِهِ فِيهَا أَقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَجَازَ وَاقَعَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْقُرْآنِ، وَهَذَا الَّذِي عَلَيْهِ
 جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ وَاقَعَ فِي اللُّغَةِ غَيْرَ وَاقَعَ فِي الْقُرْآنِ، اخْتَارَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ:
 الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشُّنْقِيطِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ (أَضْوَاءِ الْبَيَانِ).

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا مَجَازَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي اللُّغَةِ. وَهَذَا اخْتِيَارُ
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ^(١) وَتَلْمِيزُهُ ابْنَ الْقَيْمِ^(٢) رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ؛ لِأَنَّ
 الْكَلِمَةَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى ذَاتِيٌّ، الْكَلِمَةُ فِي ضِمْنِ جُمْلَةٍ، فَإِذَا دَلَّتِ الْكَلِمَةُ فِي مَوْقِعٍ مَا
 عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي فَهُوَ الْحَقِيقَةُ، لَوْ قُلْتَ: رَأَيْتُ أَسَدًا يَحْمِلُ الْحَقِيقَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ
 لَيَقْرَأَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسَدِ السَّبُعُ الْمَعْرُوفُ،
 بَلْ لَوْ ادَّعَى هَذَا مُدَّعٍ لَرَدَّ عَلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ، فَالَّذِي مَنَعَ هَذَا هُوَ السِّيَاقُ.

(١) انظر: كتاب الإيمان (ص: ٧٣).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٢٨٧).

إِذَنْ: الْأَسَدُ هُنَا حَقِيقَةٌ فِي مَوْضِعِهَا، وَهِيَ تَذُلُّ عَلَى الشَّجَاعَةِ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ أَقُولَ: رَأَيْتُ رَجُلًا شَجَاعًا يَحْمِلُ حَقِيقَةً، أَقُولُ: رَأَيْتُ أَسَدًا.

وَانْتَبَهُوا لِهَذَا فِيهِ فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَثِيرًا مَا يَحْتَجُّ النَّاسُ فَيَقُولُونَ: كَيْفَ لَا يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ مَجَازٌ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ [الكهف: ٧٧]، أَيْ: مَائِلًا، وَالْجِدَارُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ؟

فَالْجَوَابُ:

أَوَّلًا: نَمْنَعُ قَوْلَكَ: الْجِدَارُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ. بَلْ لَهُ إِرَادَةٌ، بَلَا شَكٍّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ تُسَبِّحُ بِإِرَادَةٍ بَلَا شَكٍّ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ.

ثَانِيًا: نَقُولُ: مَا الَّذِي يَمْنَعُ الْإِرَادَةَ فِي الْجَمَادِ وَالنَّبِيِّ ﷺ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي أَحَدٍ، وَهُوَ جَبَلٌ حَصَى: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(١) فَاثْبَتَ الْمَحَبَّةَ لِهَذَا الْجَبَلِ، وَالْمَحَبَّةَ أَخْصَصَ مِنَ الْإِرَادَةِ.

ثَالِثًا: نَقُولُ: إِرَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَمِثْلُ الْجِدَارِ، يَغْنِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ، كَمِثْلِ الْإِنْسَانِ، فَنَعْرِفُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَعَ مَثَلًا، وَلَا مَانِعَ.

قَالُوا: إِذَنْ تَخَلَّصْتُمْ مِنْ هَذَا، فَمَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] الْمَعْنَى: تَوَاضَعُ لَهُمَا رَحْمَةً بِهِمَا، فَيَقُولُونَ: الذَّلِيلُ هَلْ لَهُ جَنَاحٌ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَنَقُولُ: أَمَّا الذُّلُّ فَهُوَ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا لَمْ يَذَلَّ تَرَفَّعَ وَعَلَا بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: اخْفِضْ جَنَاحَ الذُّلِّ، بَدَلْ جَنَاحَ التَّرَفُّعِ، وَذَكَرَ الْجَنَاحَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَطِيرُ بِهِ الطَّيْرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَالْآيَةُ وَاضِحَةٌ أَنَّ الْمَعْنَى تَطَامُنٌ لِلوَالِدَيْنِ، وَتَذَلُّلٌ لَهُمَا، وَاخْفِضْهُمَا الْجَنَاحَ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّذَلُّلِ لَهُمَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْمَحْذُورُ الشَّرْعِيُّ فِي إِثْبَاتِ الْمَجَازِ إِذَا قُلْنَا بِالْمَجَازِ؟
فَالْجَوَابُ:

أَوَّلُ مَحْذُورٍ: أَنَّ الْمَجَازَ بِاتِّفَاقِ الْقَائِلِينَ بِهِ يَصِحُّ نَفْيُهُ، وَهَذَا يَعْنِي: أَنَّهُ يَصِحُّ تَكْذِيبُ الْقُرْآنِ، فَيَقُولُ مَثَلًا: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ الْجِدَارَ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ؛ وَهَذَا اعْتَمَدَ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْحُجَّةَ اعْتِمَادًا قَوِيًّا، قَالَ: أُبْرَزَ عَلَامَاتِ الْمَجَازِ أَنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُهُ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ يَصِحُّ نَفْيُهُ ^(١).

ثَانِيًا: أَنَّ هَذَا الْمَجَازَ الَّذِي سَمَّاهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٢) طَاغُوتًا تَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى انْكَارِ الصِّفَاتِ، وَقَالُوا: الْيَدُ مَجَازٌ عَنِ النِّعْمَةِ، وَالْأَسْتِوَاءُ مَجَازٌ عَنِ الْإِسْتِوَاءِ، وَالْعَيْنُ مَجَازٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ وَابْنَ الْقَيِّمِ أَنْكَرَا ذَلِكَ - وَشَدَّدَا فِي الْإِنْكَارِ - لِأَنَّ أَهْلَ التَّعْطِيلِ تَوَصَّلُوا بِالْمَجَازِ إِلَى انْكَارِ الصِّفَاتِ -، فَهَذَا كَذِبٌ عَلَيْهِمَا، بَلْ هُمَا أَنْكَرَاهُ مُطْلَقًا حَتَّى فِي أَبْسَطِ الْأَشْيَاءِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الرَّدُّ عَلَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَجَازَ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَتِهِ وَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ؟

فَالْجَوَابُ: هَذَا غَلَطٌ، كَيْفَ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَتِهِ وَهُوَ يَصِحُّ أَنْ يُنْفَى وَيُكْذَّبَ.

(١) انظر: منع جواز المجاز (ص: ٧).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٢٨٥).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي كِتَابِ (فَتَحَ رَبُّ الْبَرِّيَّةِ) كَأَنَّهُ يُفْهَمُ مِنَ الْكَلَامِ إِثْبَاتُ أَصْلِ
الْمَجَازِ؛ لِأَنَّكَ قُلْتَ: الْمَعْنَى الْمَجَازِيُّ لَا يَقْبَلُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ، وَمِنْ حُجَجِ الَّذِينَ
يُثْبِتُونَ الْمَجَازَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ عَلَى أَسَالِيبِ اللُّغَةِ، فَاللُّغَةُ فِيهَا مَجَازٌ، فَمِنْ
إِعْجَازِ الْقُرْآنِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ؟

فَالْجَوَابُ: نَحْنُ نَقُولُ: اللُّغَةُ لَيْسَ فِيهَا مَجَازٌ أَصْلًا. يَعْنِي: نُنَكِّرُ الْأَصْلَ، فَنَقُولُ:
اللُّغَةُ لَيْسَ فِيهَا مَجَازٌ.

وَمَا كَتَبْنَاهُ أَوَّلًا فِي أَصُولِ الْفِقْهِ حَيْثُ ذَكَرْنَا الْمَجَازَ، فَإِنَّا مَا شُونَ عَلَى خُطَّةٍ
رُسِمَتْ لَنَا مِنْ قَبْلِ الْمَعَاهِدِ، وَلَيْسَ عَنِ اعْتِقَادِ مِنَّا، وَلَقَدْ نَبَّهْنَاهُمْ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ
تَكْتُبُوا حَاشِيَةً عَلَى هَذَا فَتَقُولُوا: هَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِالْمَجَازِ، وَأَنَّا لَا نَرَى ذَلِكَ.



الآية (٢٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

• • • • •

يَعْنِي: مِثْلُ هَذَا الَّذِي قِيلَ لَكَ قِيلَ لِمَنْ قَبْلَكَ: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهِهِ، وَإِنذَارُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ مِنْ وَجْهِهِ آخَرَ، وَأَنَّهُ سَيُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ غَيْرَهُمْ مِمَّا أَصَرُّوا عَلَىٰ تَقْلِيدِ آبَائِهِمِ الْبَاطِلَ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أَي: مُنَعَّمُوهَا مِثْلَ قَوْلِ قَوْمِكَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ مُتَّبِعُونَ].

الْحِكْمَةُ مِنْهُ هُوَ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنذَارُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ أَي: عَلَىٰ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ ﴾ أَي: مَا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ ﴿مُقْتَدُونَ ﴾ أَي: مُتَّبِعُونَ مُقَلِّدُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي قِيلَ لَهُ قَدْ قِيلَ لِمَنْ قَبْلَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣].

الفائدة الثانية: اتَّفَقَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى هَدْفِ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ، وَاتِّبَاعُ آبَائِهِمْ.

الفائدة الثالثة: تَحْرِيمُ التَّقْلِيدِ بِالْبَاطِلِ، وَأَمَّا التَّقْلِيدُ بِالْحَقِّ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَإِذَا كَانَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ حُكْمَ مَسْأَلَةٍ فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الاجْتِهَادِ، فَإِنَّ فَرْضَهُ التَّقْلِيدُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]؛ وَلِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ وَلِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وَأَمَّا مَنْ حَرَّمَ التَّقْلِيدَ مُطْلَقًا فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ مُخَالَفٌ لظَاهِرِ الْقُرْآنِ، وَأَمَّا مَنْ أَلْزَمَ بِهِ مُطْلَقًا فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ مُخَالَفٌ لِمَا يَجِبُ الْإِيْيَانُ بِهِ مِنْ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ.

فَالصَّوَابُ: أَنَّ التَّقْلِيدَ لِلضَّرُورَةِ جَائِزٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقْلِيدُ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ، إِنْ اضْطُرَّ إِنْسَانٌ إِلَيْهِ فَهُوَ جَائِزٌ، وَإِلَّا فَلَا»^(١).

وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ لِلْعَامِّيِّ صَاحِبِ السُّوقِ: اجْتَهِدْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ حَتَّى تَعْرِفَ حُكْمَ اللَّهِ، وَلَوْ بَقِيَ يَجْتَهِدُ لَخَبَطَ، لَكِنَّ فَرْضَهُ أَنْ يَسْأَلَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِي أَصُولِ الدِّينِ، أَوْ فِي فُرُوعِ الدِّينِ فَقَطْ؟

فَالْجَوَابُ: أَوَّلًا تَقْسِيمُ الدِّينِ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ حَادِثٌ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهِ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّيَامَ وَالْحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ، مَعَ أَنَّهَا أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ، فَالصَّوَابُ: أَنَّ الشَّرْعَ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ، وَأَنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ حَادِثٌ، لَكِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَصُولٍ عِلْمِيَّةٍ، وَأَصُولٍ عَمَلِيَّةٍ،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/١٨٥).

فَالْأُصُولُ الْعِلْمِيَّةُ هُوَ الْإِعْتِقَادَاتُ، وَالْعَمَلِيَّةُ هُوَ الْعِبَادَاتُ الْمُكَلَّفُ بِهَا، هَذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّصُّ.

إِذَنْ نَقُولُ: قَوْلُنَا: هَلْ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، أَوْ فِي فُرُوعِهِ فَقَطْ؟ أَصْلُ التَّقْسِيمِ حَدِيثٌ مُبْتَدَعٌ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ الْآنَ، وَهُوَ أَيْضًا غَيْرُ صَحِيحٍ. وَجْهٌ بَطْلَانِهِ أَنَّهُ جَعَلَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّيَامَ وَالْحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ وَهِيَ أَصْلٌ مِنَ أُصُولِ الدِّينِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ نَقُولُ: التَّقْلِيدُ فِيمَا تُسَمِّيهِ أَصْلُ الدِّينِ وَفُرُوعَهُ جَائِزٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَتَلَوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [النحل: ٤٣]، وَالرَّسَالَةُ عَلَى تَقْسِيمِ هَؤُلَاءِ إِلَى أُصُولٍ وَفُرُوعٍ مِنَ الْأُصُولِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُ رَجُلٌ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَتَلَوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ اسْأَلُوا: هَلْ أَرْسَلْنَا رِجَالًا، أَوْ أَرْسَلْنَا مَلَائِكَةً، ﴿اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾.

وَالْقَاعِدَةُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَجَزَ أَنْ يُدْرِكَ الْحَقَّ بِنَفْسِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ التَّقْلِيدُ، سَوَاءً فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ أَوِ الْعَمَلِيَّةِ، لَا فَرْقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا مُجَرَّدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ، وَهَذَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِعَمَلِ النَّاسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْقَوْمِ، فَإِذَا تُهَيْتَ عَنْ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ كُلُّ النَّاسِ فَهَذَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقَابَلَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ، كُلُّ النَّاسِ يَفْعَلُونَ هَذَا، فَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْفَعَكَ عِنْدَ اللَّهِ، قُلْ: هَذَا دَلُّ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ عَلَى جَوَازِهِ.

الآية (٢٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ ﴾ ﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا ﴾
 إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كَفِرُونَ ﴿ [الزخرف: ٢٤].

• • • • •

قَالَ المفسر رحمه الله: [﴿ قُلْ ﴾ أَي: هُمْ ﴿ أُولُو ﴾ تَتَّبِعُونَ ذَلِكَ ﴿ حِجَّتِكُمْ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا ﴾ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء ﴿ أَنْتَ وَمَنْ قَبْلَكَ ﴾ كَفِرُونَ ﴿].

﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ ﴾: ﴿ قُلْ ﴾ أَي: الرُّسُول الَّذِي يُرْسِلُهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَيُقَابِلُ
 بِأَتَمِّهِمْ وَجَدُوا ءَابَاءَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ، ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ: ﴿ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ
 ءَابَاءُكُمْ ﴾ يَعْنِي: أَتَرُدُّونَ قَوْلِي وَتَتَّبِعُونَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ وَلَوْ حِجَّتَكُمْ بَاهْدَى مِنْهُ؟!
 وَالْأَسْتَفْهَامُ هُنَا وَاضِحٌ أَنَّهُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ. يَعْنِي: كَيْفَ تَتَّبِعُونَ مَا عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ،
 وَأَنَا قَدْ حِجَّتَكُمْ بَاهْدَى؟! ﴿ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ ﴾ وَهُوَ شَرْعٌ
 اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

وَمَعَ هَذَا فَالرَّدُّ وَاحِدٌ: ﴿ قَالُوا ﴾ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كَفِرُونَ ﴿ وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ
 مِنَ الْعِنَادِ، يَعْنِي: حَتَّى وَلَوْ حِجَّتَنَا بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا فَإِنَّا كَافِرُونَ، وَلَا نَقُولُ
 كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ بَلْ نَقُولُ: كَافِرُونَ مُطْلَقًا، وَهَذَا أَبْلَغُ مَا
 يَكُونُ فِي الْعِنَادِ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - وَهَذَا كَقَوْلِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمٍ صَالِحٍ
 ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِء كَفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان معالجة الرُّسلِ عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ للمُكذِّبين، أنَّهم يُدْلُون عليهم بالحُججِ المَقْنَعَةِ، وَلَكِنْ الكَافِرُونَ يُعَانِدُونَ.

الفائدة الثانية: جوازُ التَّفْضِيلِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ قَدْ لَا يَكُونُ فِي الطَّرْفِ الْآخِرِ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْنَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أُولُو حِثِّكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾: ﴿بِأَهْدَى﴾ اسْمٌ تَفْضِيلٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَقُولُ: مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى؛ لَكِنَّ التَّنَزُّلَ مَعَ الْحُضْمِ لَا بَأْسَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الطَّرْفِ الْآخِرِ شَيْءٌ.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هَذِهِ الْأَصْنَامُ، وَهَلْ فِي الْأَصْنَامِ خَيْرٌ؟

لَا، لَكِنَّ مِنْ أَجْلِ مُجَادَلَةِ الْحُضْمِ نَقُولُ هُمْ: هَلِ اللَّهُ خَيْرٌ أَمْ أَهْلُكَ، وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَهُ لَيْسَ فِيهَا خَيْرٌ؛ فَهَذَا قَالَ: ﴿أُولُو حِثِّكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ نَعْلَمُ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى، بَلْ هُوَ ضَلَالٌ، وَلَكِنَّا نَخَاطِبُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ هُدًى، فَنَخَاطِبُهُ عَلَى قَدْرِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْفَهْمِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَعْمِلُهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ؛ حَيْثُ يَتِمَشَّى فِيمَا يُجَادِلُهُمْ بِهِ عَلَى حَسَبِ اصْطِلَاحِهِمْ وَإِنْ كَانَ يُنْكَرُ أَصْلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الْمُجَادَلَةَ مَعَ الْحُضْمِ لَا بَأْسَ أَنْ يَنْزِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى حَسَبِ فَهْمِ الْحُضْمِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ أَوْلِيكَ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ نِيَّةٌ فِي أَنْ يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا غَلِبُوا فِي الْحُجَّةِ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

كَفِرُونَ ﴿ يَعْنِي: لَنْ نُؤْمِنَ، مَهْمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْحُجَّةِ فَلَنْ نُؤْمِنَ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ
مِنَ الْاسْتِكْبَارِ عَنِ الْحَقِّ.



الآية (٢٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

[الزخرف: ٢٥].

• • • • •

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَي: أَنزَلْنَا بِهِمُ النِّقْمَةَ، وَهِيَ الْعُقُوبَةُ، ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَنْظَرُ يَا مُحَمَّدُ، أَوْ أَنْظَرُ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، إِذَا نَظَرْنَا وَجَدْنَا الْعَاقِبَةَ الْهَلَاكَ وَالْدَّمَارَ، فَلْنَعْتَبِرْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُمِلِّي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُمْ بِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَكِنْ يُمِلِّي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ.

الفائدة الثانية: الْأَمْرُ بِالْإِعْتِبَارِ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وَالنَّظَرُ هُنَا نَظَرُ قَلْبٍ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ الْهَلَاكَ وَالْدَّمَارُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ كُلَّ الْمُكَذِّبِينَ، أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ، وَقَوْمَ هُودٍ، وَقَوْمَ صَالِحٍ، وَقَوْمَ لُوطٍ، وَفِرْعَوْنَ، كُلَّ الْمُكَذِّبِينَ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- جَعَلَ اللَّهُ هَلَاكَ عَدُوِّهَا عَلَى يَدَيْهَا، وَذَلِكَ بِالْحُرُوبِ؛ لِأَنَّ هَلَاكَ عَدُوِّكَ عَلَى يَدِكَ أَشْفَى لِلْقَلْبِ مِنْ هَلَاكِهِ

بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَهَذَا كَانَ هَلَاكُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَيْدِيهِمْ كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ:
﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

الفائدة الرابعة: وجوب النظر والاعتبار.

الفائدة الخامسة: أن عاقبة المكذبين للرسل هي الهلاك والدمار.

الفائدة السادسة: هذه الأمة من تكذيب رسولها أن يُصيبهم ما أصاب
غيرهم.



الآيتان (٢٦، ٢٧)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

• • •

﴿ وَإِذْ ﴾ مَفْعُولٌ لِفِعْلِ مُحْذُوفٍ، التَّقْدِيرُ: وَاذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ تَتَمَّى إِلَيْهِ جَمِيعُ الْأُمَمِ، الْيَهُودُ قَالُوا: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ. وَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ. وَالْعَرَبُ قَالُوا: إِنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ مِلَّتَهُ. فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ التَّقْدِيرُ: وَاذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ، إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ إِمَامُ الْخَنَفَاءِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي مِنْهَا: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

وقوله: ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ وَهُوَ آزَرُ ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ مُحَاجَّةَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَى وَجْهِ مَبْسُوطٍ، وَفِي غَيْرِهَا عَلَى وَجْهِ مُخْتَصَرٍ أحيانًا، وَمُتَوَسِّطٍ أحيانًا، فَجَرَتْ مُحَاوَرَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿إِنْ دَعَوْتَهُ لَمْ يَسْمَعْكَ، وَإِنْ وَاَفَّقْتَهُ لَمْ يَرْكَ، وَإِنْ اسْتَعَنْتَ بِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ، وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴿[مريم: ٤١-٤٣].

وَالْخِطَابُ الْآنَ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّرْقِيقِ، وَالتَّلْطِيفِ، وَالتَّنْزِيلِ أَمَامَ الْأَبِ؛ قَالَ: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَا أَبَتِي إِنَّكَ جَاهِلٌ وَأَنَا عَالِمٌ، بَلْ قَالَ: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وَهَذَا مِنْ أَدَبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ جَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ الْوَحْيُ وَأَبُوهُ لَيْسَ كَذَلِكَ، جَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ التَّوْحِيدُ وَأَبُوهُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

فَقَالَ: ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ الْوَلَدُ يَقُولُ لِأَبِيهِ: (اتَّبِعْنِي)؛ لِأَنَّ الْابْنَ مَعَهُ حَقٌّ، وَالْأَبُ لَيْسَ كَذَلِكَ ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿[مريم: ٤٣-٤٤]﴾ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ يُعْنِي: عِبَادَةُ الطَّاعَةِ، وَكُلُّ مَنْ أَطَاعَ شَيْئًا فَقَدْ عَبْدَهُ عَلَى حَسَبِ الْحَالِ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أَيُّ: عَاصِيًّا ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]، أَيُّ: يُصِيبُكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، فَجَعَلَ وَلَايَتَهُ لِلشَّيْطَانِ مِنَ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ إِعْرَاضَ الْإِنْسَانِ عَنِ الْحَقِّ مُصِيبَةٌ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

نَحْنُ نَنْظُرُ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ هِيَ الْبَلَاءُ يَنْزِلُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ مَرَضٍ وَفَقْرٍ، وَمَا أَشْبَهَ

ذَلِكَ، وَهَذَا - حَقًّا - عُقُوبَةٌ، وَلَكِنْ هُنَاكَ عُقُوبَةٌ أَشَدُّ وَهِيَ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ الْبَلَاءِ الْحَسِيِّ الْجَسَدِيِّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥] كَانَ جَوَابُ الْأَبِ جَوَابًا قَاسِيًا: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهِتِ يَتَّبِعُهُمْ﴾ [مريم: ٤٦]، أَنْكَرَ عَلَيْهِ الرِّغْبَةَ.

وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ: الَّذِي يَلِي هَمْزَةَ الْاسْتِفْهَامِ هُوَ الْمُنْكَرُ، يَعْنِي: لَمْ يَقُلْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَرَأَيْتَ. بَلْ بَدَأَ بِالْإِنْكَارِ عَلَى الطَّرِيقَةِ، قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهِتِ يَتَّبِعُهُمْ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ يَعْنِي: عَنْ دَعْوَتِكَ إِيَّايَ عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وَعَيْدٌ يَقُولُهُ الْأَبُ لِابْنِهِ، وَابْنُهُ يَتَرَقَّقُ لَهُ، وَيَتَحَنَّنُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَ﴾ ﴿يَتَأْتِيَ﴾ وَهَذَا جَوَابُ الْأَبِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قَالَهُ أَيْضًا غَيْرُهُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ؛ فِرْعَوْنُ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، يَعْنِي: ائْتَرُكْنِي ﴿مَلِيًّا﴾ أَيْ: زَمَنًا طَوِيلًا، يَعْنِي: يَقُولُ: دَعْنِي عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَلَا تُكَلِّمْنِي، قَالَ: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] هَذِهِ النِّهَايَةُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، فَمَا أَحْلَمَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، قَالَ: ﴿سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ حَتَّى نَهَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُشْرِكًَا اسْمُهُ آزَرُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]، الْعَجَبُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ

- نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ - حَرَفَ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا أَرَادَ اللَّهُ؛ بِنَاءً عَلَى هَوَاهُ، فَقَالَ: أَبُو إِبْرَاهِيمَ لَيْسَ مُشْرِكًا، بَلْ هُوَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَبُو النَّبِيِّ مُشْرِكًا وَأَزَرَ هُوَ عَمَّهُ وَلَيْسَ أَبَاهُ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ الْهَوَى! وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأِيهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَكَيْفَ نَقُولُ: لَيْسَ أَبَاهُ، وَهُوَ عَمَّهُ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْأَلُكَ كَيْفَ نَقُولُ: إِنَّهُ عَمَّهُ. وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَبَتِي؟!

أَمَّا يَسْتَحِجِّي قَائِلُ هَذَا الْقَوْلِ! أَمَّا يَتَّقِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِتَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ بِنَاءً عَلَى عَقِيدَةٍ فَاسِدَةٍ أَنَّ أَبَا الرَّسُولِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا!

وَنَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَأَمَّلُوا كَوْنَ أَبِي الرَّسُولِ كَافِرًا وَابْنُهُ نَبِيٌّ - أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَأَنَّ النَّسَبَ لَا يَنْفَعُ أَصْحَابَهُ.

وَاللَّهُ لَوْ قُلْنَا هَذَا لِعَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ أَزَرَ عَمَّ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسَ أَبَاهُ. لَا نَتَّقِدُنَا، بَلْ نَقُولُ: أَبُو إِبْرَاهِيمَ كَافِرٌ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ كَافِرٌ، وَمَاذَا يَضُرُّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا كَانَ أَبُوهُ كَافِرًا؟ لَا يَضُرُّهُ شَيْئًا، بَلْ هَذَا أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ يُخْرِجُ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَضْلَابِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، لَكِنْ - الْحَمْدُ لِلَّهِ - لَمْ يُخْرِجْ نَبِيًّا أَبَدًا مِنْ سِفَاحٍ.

أَمَّا مَسْأَلَةُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ فَهَذَا لَا يُعَدُّ انْتِهَاكَ لِأَعْرَاضِ الْأَنْبِيَاءِ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِأَبِيهِ صَرَاحَةً وَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وَالْجُمْلَةُ هَذِهِ مُؤَكَّدَةٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِ(إِنَّ)، قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَرَاءٌ﴾ بِرِيءٌ] وَهَذَا نَقْصٌ مِنَ الْمَفْسَّرِ؛ لِأَنَّ (بَرَاءً) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَبِرِيءٌ اسْمٌ فَاعِلٌ، وَالصِّفَةُ الْمُشَبَّهَةُ أَعْظَمُ؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ، فَ(بَرَاءً) أَعْظَمُ مِنْ (بِرِيءٍ)، وَ(بَرَاءً) يَعْنِي: صِفَةُ الْبَرَاءَةِ، الصِّفَةُ الدَّائِمَةُ الثَّابِتَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ، الْبَرَاءُ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مِنَ الَّذِي تَعْبُدُونَهُ.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ والمرادُ بِالَّذِي يَعْبُدُونَهُ: الأصنامُ الَّتِي يَنْحِتُونَهَا هُمْ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَعْبُدُونَهَا؛ ولهذا قَالَ هُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جُمْلَةٍ مُنَاطِرَاتِهِ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ ١٥ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥-٩٦]، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهَا وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ؟! كَيْفَ تَعْبُدُونَهَا وَأَنْتُمْ الَّذِينَ تَنْحِتُونَهَا؟!

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾: ﴿إِلَّا﴾ أَدَاةُ اسْتِثْنَاءٍ، لَكِنْ هَلِ الِاسْتِثْنَاءُ هُنَا مُنْقَطِعٌ أَوْ هُوَ مُتَّصِلٌ؟

الجواب: إِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَغَيْرَهُ فَالِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَالِاسْتِثْنَاءُ الْمُنْقَطِعُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَا بَعْدَ (إِلَّا) مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الَّذِي قَبْلَهَا، وَمِثْلُ لَهُ النَّحْوِيُّونَ بِقَوْلِهِمْ: (جَاءَ الْقَوْمُ إِلَّا حَمَارًا). وَالْحَمَارُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الْقَوْمِ، فَيَكُونُ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، أَمَّا إِذَا قِيلَ: (جَاءَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدًا). فَالِاسْتِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ؛ لِأَنَّ زَيْدًا مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ.

وَنُطَبِّقُ مَا هُنَا عَلَى الْقَاعِدَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَغَيْرَهُ فَالِاسْتِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لَمْ يَقُلْ: إِلَّا اللَّهُ. مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقِيمَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، فَالَّذِي فَطَرَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَأَوْجَدَكَ مِنَ الْعَدَمِ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَكَ، يَعْنِي: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: إِلَّا اللَّهُ؟

فالجواب: لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّبَّ خَالِقُ،

لَكِنَّهُ أَتَى بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وَهُوَ مَعْلُومٌ؛ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خَلَقَنِي ﴿فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ﴾ سَيَّرَ شِدُنِي لِدِينِهِ] وَالْهُدَايَةُ نَوْعَانِ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي بَيَانِ الْفَوَائِدِ.



الآية (٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

• • • • •

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الْمَفْهُومَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هِيَ قَوْلُهُ: [﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾]، وَهَذَا غَلَطٌ مِنَ الْمَفْسِّرِ، فَالْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا هِيَ أَقْرَبُ كَلِمَةٍ وَهِيَ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ فَلَا عِلَاقَةَ لَهُ فِي الْآيَةِ.

إِذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا، وَهِيَ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أَي: صَيَّرَهَا هِيَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا مَنْ بَعْدَهُ، ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ عَقِبَ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوحِدُ اللَّهَ] هَكَذَا قَالَ الْمَفْسِّرُ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ سَتَبْقَى فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُشْرِكَ الذَّرِّيَّةُ كُلُّهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى، وَالصَّوَابُ خِلَافُ هَذَا.

فَالصَّوَابُ: أَنَّ الْمَعْنَى جَعَلَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا مَنْ بَعْدَهُ، سَوَاءً التَّرْمُوهَا أَمْ لَمْ يَلْتَزِمُوهَا.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ] وَلَوْ قِيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيُّ: عَقِبِهِ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ أَهْلِ مَكَّةَ، فِيهَا الْعَقِبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ عَقِبِهِ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَقِبِهِ، فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَعُودُ إِلَى ﴿عَقِبِهِ﴾ صَارَ أَعَمَّ مِمَّا قَالَ الْمُفَسِّرُ؛ لِأَنَّهُ خَصَّهَا بِجُزْءٍ مِنَ الْعَقِبِ، وَهَذَا قُصُورٌ بِلَا شَكٍّ؛ وَلِهَذَا اتَّخَذَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ: (لَا تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِأَخْصَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ)، بِمَعْنَى: إِذَا كَانَ الْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ عَامٍّ فَلَا تُخَصِّصْهُ، إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ، وَإِلَّا فَأَبْقِهِ عَلَى عُمُومِهِ.

إِذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْعَقِبِ مِنْ قَرِيشٍ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ.

لَكِنْ مَا مَعْنَى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾؟

عَلَى كَلَامِ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْنِي: أَنَّهَا سَتَبْقَى هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الْعَقِبِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفْقَدَ مِنْهُمْ التَّوْحِيدُ.

وَالصَّوَابُ: أَنْ جَعَلَهَا جَعْلًا شَرْعِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ عَهْدٌ إِلَى عَقِبِهِ أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فَمِنْهُمْ مَنْ أَطَاعَ وَمِنْهُمْ مَنْ عَصَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَهِيَ إِعْلَانُهُ الْبَرَاءَةَ مِمَّا يَعْبُدُ قَوْمُهُ ﴿وَإِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا نَعْبُدُونَ﴾.

الفائدة الثانية: التوحيد الخالص في إبراهيم؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٣٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿ وهذا معنى قولي: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). فـ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ بإزاء (لَا إِلَهَ)، وـ ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ بإزاء (إِلَّا اللَّهُ)، إِذَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بِمَعْنَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. تَمَامًا.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْرَنَ الْحُكْمَ بِالذَّلِيلِ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ، ذَلِكَ حِينَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

الفائدة الرابعة: قُوَّةُ الرَّجَاءِ - أَيْ: رَجَاءِ إِبْرَاهِيمَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ -؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وَالسَّيْنُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ.

والهَدَايَةُ نَوْعَانِ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ، وَهَذِهِ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

النَّوعُ الثَّانِي: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ لِلْحَقِّ، وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا أَحَدَ يَمْلِكُهَا، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَإِيَّاكُمْ.

ثُمَّ الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي هَذَا: مِنْهَا مَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ التَّوْفِيقِ، وَمِنْهَا مَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ الدَّلَالَةِ، وَمِنْهَا مَا يَشْمَلُ الْأَمْرَيْنِ، فَالْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي الْهِدَايَةِ، فَقَوْلُ الْمُصَلِّي: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] يَشْمَلُ الْأَمْرَيْنِ: هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الْعِلْمُ، وَهِدَايَةَ التَّوْفِيقِ وَهِيَ الْعَمَلُ، فَهَلْ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي تَشْعُرُ بِهِذَا إِذَا قُلْتَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَوْ تَشْعُرُ بِأَنَّكَ تَتْلُو الْقُرْآنَ فَقَطْ؟

الثَّانِي غَالِبًا، فَأَكْثَرُ النَّاسِ يَقُولُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يَقْرُؤُهَا عَلَى أَنَّهَا

آيَةٌ تُقْرَأُ، لَا يَشْعُرُ أَنَّ الْمَعْنَى اهْدِنِي: عَلَّمَنِي وَوَفَّقَنِي لِلْعَمَلِ، لَا يَشْعُرُ بِهَذَا، لَكِنْ اسْتَشْعِرَ هَذَا الشَّيْءَ حَتَّى تَعْرِفَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُؤْمِنُ.

مِثَالُ هِدَايَةِ الدَّلَالَةِ وَحُدهَا: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] هَذِهِ هِدَايَةٌ دَلَالَةٌ يَعْني: تَدُلُّ النَّاسَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَمِثَالُ هِدَايَةِ التَّوْفِيقِ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦]، يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ يَعْني: لَنْ تُوَفِّقَ أَحَدًا هِدَايَةً وَلَوْ كُنْتَ تُحِبُّهُ؛ وَهَذَا حَاوَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ حَضَرَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، حَاوَلَ أَنْ يُوحِدَ اللَّهَ وَلَكِنْ عَجَزَ، قَالَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ: «يَا عَمَّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» وَكَانَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلِيسَا سُوءٍ، فَقَالَ لِأَبِي طَالِبٍ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

يَعْني: جَدَّهُ الَّذِي تَفْتَخِرُ بِهِ قُرَيْشٌ، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(١). وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

فَالْهِدَايَةُ الَّتِي عَجَزَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ هِيَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، أَمَّا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ فَقَدْ قَالَ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] مِنْ هِدَايَةِ الدَّلَالَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْنِبْتُمْ وَهْدِيَتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] يَشْمَلُ
الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ اهْدِنِي هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ». يُعَيِّنُ هِدَايَةَ مُعَيَّنَةً؟

فَالْجَوَابُ: لَا، يَقُولُ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي. وَيَنْوِي الْهَدَايَتَيْنِ، أَوْ يَقُولُ: اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي
وَوَقِّفْنِي لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: تَمَامُ نَصْحِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَقْبِهِ؛ حَيْثُ جَعَلَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ
بَاقِيَةً فِيهِ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الْوَصِيَّةِ لِلْعَقَبِ أَنْ يَقُومُوا بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّجُوعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَسْلَافُ مِنَ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ:
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.



الآية (٢٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾﴾

[الزخرف: ٢٩].

• • • • •

﴿ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾﴾
﴿ بَلْ ﴾ هَذِهِ لِلْإِضْرَابِ، إِضْرَابُ انْتِقَالٍ؛ لِبَيَانِ مِنَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى قَرِيشٍ.

قَالَ الْمَفْسَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿﴿ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴾﴾ الْمُشْرِكِينَ، أَيِ: أَبْقَيْتُهُمْ ﴿﴿ وَءَابَاءَهُمْ ﴾﴾ وَلَمْ أَعِجِّلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ [بَلْ أَبْقَاهُمْ بِدُونِ عِقُوبَةٍ مَعَ شُرَكَاهُمْ وَكُفْرِهِمْ، وَاتَّخَاذِ أَصْنَامٍ كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَهَبْلَ وَمَنَاةَ. ﴿﴿ حَقًّا ﴾﴾ لِلْغَايَةِ يَعْني: إِلَى أَنْ ﴿﴿ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾﴾: ﴿﴿ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْقُرْآنُ] وَالصَّوَابُ مَا هُوَ أَعَمُّ: الْقُرْآنُ، وَالْإِسْلَامُ، وَالسُّنَّةُ. فَهُوَ أَعَمُّ مِمَّا قَالَهُ الْمَفْسَرُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ بِالْقَاعِدَةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا قَبْلَ قَلِيلٍ، وَهِيَ إِبْقَاءُ الْقُرْآنِ عَلَى عُمُومِهِ فَلَا نُخَصِّصُهُ؛ فَتَقُولُ: ﴿﴿ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾﴾ أَيِ: الَّذِي أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾﴾ مُظْهِرُ عِلْمِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿﴿ وَرَسُولٌ ﴾﴾ نَكَّرَهُ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَنَكَّرَهُ لِلتَّعْظِيمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿﴿ مُبِينٌ ﴾﴾ أَيِ: مُظْهِرٌ لِلأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَمْرِ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَّانُ أَنَّ اللَّهَ بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ؛ إِنْ شَاءَ مَتَّعَ النَّاسَ وَأَبْقَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَهْلَكَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ فالتَّمَتُّعُ عَائِدٌ إِلَيْهِ وَحَدُّهُ.

وأفعال الله لَيْسَ لَهَا حَضَرٌ، فَالَّذِي مَتَّعَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ، وَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ فَهُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ فَلَا حَضَرَ لَهُ.

الفائدة الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَاءِ الْكَافِرِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَإِلَّا لَأَهْلَكَهُ، لَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمِنْ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ حَقٌّ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيَسْعُدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ الْحِكْمَةِ فِي بَقَاءِ الْكُفَّارِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ امْتِحَانٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، بِجِهَادِ الْكُفَّارِ، وَظُهُورِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْلَامِ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ، إِنْ كَانَ أَخْبَارًا فِيهِ صِدْقٌ، وَإِنْ كَانَتْ أَحْكَامًا فِيهِ عَدْلٌ، وَلَيْسَ فِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بِاطِلٌ، كُلُّهُ حَقٌّ.

الفائدة الرابعة: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا.

الفائدة الخامسة: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ كُلَّ مَا نَحْتَاجُهُ أُمَمُهُ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ فَتَفَعَّلَهُ، وَمِنْ شَرٍّ فَتَرَكُهُ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تُوِّفِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا^(١).

وَإِذَا شِئْتَ مِصْدَاقَ هَذَا الْقَوْلِ فَانْظُرِ: الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ جَاءَتْ بِتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَا يَكُونُ، جَاءَتْ بِبَيَانِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّيَامِ، جَاءَتْ بِآدَابِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، جَاءَتْ بِآدَابِ التَّخَلِّي مِنْهُمَا - مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ -

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٣/٥).

جاءتْ بِأَدَابِ اللَّبَاسِ، حَتَّى لُبِسُ الثَّوبِ جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِهِ؛ تُدْخِلُ الْكُفَّاءَ الْإِيمَانَ
قَبْلَ الْإِيمَانِ، وَتَخْلَعُ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، جَاءَتِ بِأَدَابِ مُعَامَلَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ مَعَ
بَعْضٍ.

كُلُّ شَيْءٍ دَقِيقٍ أَوْ جَلِيلٍ فَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِبَيَانِهِ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- لَكِنْ يَضِلُّ مَنْ
يَضِلُّ، وَيَهْتَدِي مَنْ يَهْتَدِي.



(الآية ٣٠)

••❦••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾﴾

[الزخرف: ٣٠].

••❦••

نَسَّأَلُ اللّٰهَ الْعَافِيَةَ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ وَيَعْنُونَ بِهِنَّ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَبَيْنُ الْكَلَامِ وَأَفْصَحُ الْكَلَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»^(١)؛ وَهَذَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَأْتِي خُفْيَةً فِي اللَّيْلِ لِتَسْتَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ، أَخَذَ بِالْبَابِهَا وَجَرَّهَا جَرًّا عَنِيفًا إِلَى اسْتِمَاعِهِ فَقَالُوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ سَحَرْنَا مُحَمَّدًا، مُحَمَّدٌ سَاحِرٌ، كَاهِنٌ، مَجْنُونٌ ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

نَسَّأَلُ اللّٰهَ الْعَافِيَةَ! فَأَكْذَبُوا أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ -عَلَى زَعْمِهِمْ- سِحْرٌ، وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ سِحْرًا فَالَّذِي جَاءَ بِهِ يَكُونُ سَاحِرًا؛ وَهَذَا لَقَبُوا النَّبِيَّ ﷺ بِالْقَابِ السُّوءِ؛ حَتَّى يَنْفِرَ النَّاسُ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَلَكِنْ -وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ- كُلَّمَا أَخَذُوا شَرًّا أَحَدَتْ اللّٰهُ خَيْرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: شِدَّةُ عِنَادِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ؛ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ سِحْرٌ مَعَ أَنَّهُ حَقٌّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: شِدَّةُ عِنَادِهِمْ؛ حَيْثُ أَعْلَنُوا إِعْلَانًا صَرِيحًا أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِهِ
﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.



الآية (٣١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

[الزخرف: ٣١].

• • • • •

قَالُوا أَيُّضًا لِّمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هَلَا] ﴿ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾: ﴿ لَوْلَا ﴾ بِمَعْنَى: هَلَا، وَلَهَا أَمْثَلَةٌ: مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النور: ١٣] أَي: هَلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.

وقوله: ﴿ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ هَذِهِ عِلَّةٌ أُخْرَى لِرَدِّهِمُ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ، وَهُمَا مَكَّةُ وَالطَّائِفُ. يَعْني: لَكُنَّا قَبْلِنَاهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ فَلَا نَقْبَلُهُ، -سُبْحَانَ اللَّهِ- مَا أَعْظَمَ عِنَادَهُمْ! إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ أَعْظَمُ رَجُلٍ فِي قَرْيَشٍ، إِنْ نَظَرْتَ إِلَى سِلْسِلَةِ آبَائِهِ وَجَدْتَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى خُلُقِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَجَدْتَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، حَتَّى كَانُوا يُلْقِبُونَهُ بِالْأَمِينِ، وَلَمَّا جَاءَ الْحَقُّ صَارَ كَذَّابًا، صَارَ سَاحِرًا، صَارَ مَجْنُونًا، صَارَ كَاهِنًا.

إِذْنًا: تَعَلَّلُوا الْآنَ بِعِلَّةٍ ثَانِيَةٍ -غَيْرَ أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ-، وَهِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِّنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، أَوْ أَهْلِ مَكَّةَ لَقَبَلْنَاهُ، وَلَكِنْ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَلَيْسَ عَظِيمًا فِي قَوْمِهِ، فَلَا نَقْبَلُهُ.

يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ﴾ أَي: مِنْ آيَةٍ مِنْهُمَا] إِمَّا مَكَّةَ،
وإِمَّا الطَّائِفَ. ﴿عَظِيمٌ﴾ أَي: مُعْظَمٌ فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ سَمَّاهُمْ: [الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بِمَكَّةَ،
أَوْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ بِالطَّائِفِ] وَهَذَا التَّعْيِينُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَإِذَا صَحَّ - مِنْ
حَيْثُ التَّارِيخُ - أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَعْنُونَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فَلَا غَرَابَةَ، وَإِلَّا فَتَبْقَى الْآيَةُ عَلَى
إِبْهَامِهَا، وَأَنْتُمْ تَعَلَّلُوا بِهَذِهِ الْعِلَلِ الْبَاطِلَةِ، بَأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنَ
الْقَرِيتَيْنِ.



الآية (٣٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

• • • • •

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار. يعني: هل هم الذين يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ، فيجعلون لهذا حظاً ولهذا حظاً، أو يقولون: هذا لا يستحق وهذا يستحق. ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بالنبوة] وهذا أيضاً مما يؤخذ على المفسر، لأنه خصه بالنبوة، ونحن نقول: بالنبوة وغيرها. هم لا يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ لا بالنبوة ولا بالقوة، ولا بالأكل ولا بالشرب، ولا غير ذلك.

فإن قال قائل: الآية هذه ﴿رَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ مذكورة في سياق قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ﴾ وهنا خص النبوة بأن تكون بأحد الرَجُلَيْنِ؟

فالجواب: نقول: نعم السياق في النبوة، لكن إذا كان عاماً دخلت فيه النبوة؛ ولهذا قال الأصوليون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والسياق لا يكون دليلاً؛ لأنه لو قلنا: إنه عام لم يخرج ما دل عليه السياق، أما إذا كان يخرج ما دل عليه السياق فمعلوم أنه لا يصح.

وَعَلَىٰ هَذَا نَقُولُ: المرادُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ النُّبُوَّةِ. يَعْنِي: النُّبُوَّةُ، وَسَعَةُ الرِّزْقِ، وَالْأَمْنِ، وَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَهُمْ لَا يَقْسِمُونَ هَذَا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ حَسْبِي لَا يُمَكِّنُ إنْكَارُهُ. يَعْنِي: إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرُوا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: قَدَرْنَا هَذَا غَنًى، وَهَذَا فَقِيرٌ، وَهَذَا مُتَوَسِّطٌ، هَذَا قَادِرٌ، وَهَذَا عَاجِزٌ، وَقُرَيْشٌ لَا تُنْكِرُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَعْلُومٌ مَلْمُوسٌ مُحْسُوسٌ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَجَعَلْنَا بَعْضَهُمْ غَنِيًّا، وَبَعْضَهُمْ فَقِيرًا، وَهَذَا مِثَالٌ، وَإِلَّا فَنَقُولُ: وَجَعَلْنَا بَعْضَهُمْ ضَعِيفًا وَبَعْضَهُمْ قَوِيًّا، وَبَعْضَهُمْ قَادِرًا وَبَعْضَهُمْ عَاجِزًا.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [فَجَعَلْنَا بَعْضَهُمْ غَنِيًّا، وَبَعْضَهُمْ فَقِيرًا] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ بِالْغِنَى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾].

قَوْلُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بِالْغِنَى] وَلَكِنْ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْقُصُورِ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ رَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ فِي الْغِنَى، وَالْعِلْمِ، وَالْعَقْلِ، وَالْخَلْقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. رَفَعَ اللَّهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ. أَيُّ: دَرَجَاتٍ وَاسِعَةً.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ الْغِنَى ﴿بَعْضًا﴾ الْفَقِيرَ ﴿سُلْخِيًّا﴾ مُسَخَّرًا فِي الْعَمَلِ لَهُمْ بِالْأَجْرَةِ، وَالْيَأَى لِلنَّسَبِ، وَقُرِئَ بِكُسْرِ السِّينِ].

رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا﴾ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿بَعْضُهُمْ﴾ الْأَغْنِيَاءُ ﴿بَعْضًا﴾ الْفُقَرَاءُ] هَذَا قَاصِرٌ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ

﴿لَتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ حَتَّى فِي غَيْرِ الْغِنَى، حَتَّى فِي الذِّكَاةِ، حَتَّى فِي الصَّنَاعَةِ، فَتَجِدُ رَجُلًا مَثَلًا عِنْدَهُ خِبْرَةٌ فِي الصَّنَاعَةِ يَأْتِي بِالْعَمَالِ هُوَ فَوْقَهُمْ، كَذَلِكَ فِي الذِّكَاةِ يَجْلِسُ مَعَ قَوْمٍ وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ بِذِكَايِهِ الْمَفْرِطِ، وَهُمْ دُونَ ذَلِكَ، فَيَرَفَعُهُمُ اللَّهُ.

المهم: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نُخَصِّصَ عُمُومَ الْقُرْآنِ إِلَّا بِدَلِيلٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْيَاءُ لِلنَّسَبِ] أَي: لِنَسَبِ التَّسْخِيرِ.

وقوله: [قُرِئَ بِكُسْرِ السَّيْنِ] الْمُفَسِّرُ لَهُ اصْطِلَاحٌ لَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَهُ، إِذَا قَالَ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) فِيهِ سَبْعِيَّةٌ، وَإِذَا قَالَ: (قُرِئَ) فِيهِ شَادَّةٌ؛ هَذَا اصْطِلَاحُهُ، فَهَذَا يَقُولُ: [قُرِئَ بِكُسْرِ السَّيْنِ]، فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ شَادَّةً خَارِجَةً عَنِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّهُمَا قِرَاءَةٌ شَادَّةٌ؛ لِأَنَّ السَّيْنَ بِالْكَسْرِ الْاسْتِهْزَاءُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَّخِذْنَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٣]، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَتَّخِذْنَهُمْ سَخِرِيًّا﴾ أَي: هُزُءًا.

وَأَمَّا بِالضَّمِّ (سُخْرِيًّا) فَهُوَ مِنَ التَّسْخِيرِ، يَعْنِي: التَّذْلِيلِ؛ إِذِنْ: الْمُنَاسِبُ هُنَا الضَّمُّ؛ لِأَنَّهُ مِنَ التَّسْخِيرِ لَوْلَا اخْتِلَافُ النَّاسِ هَذَا اخْتِلَافٌ لَتَعَطَّلَتِ الْمَصَالِحُ، فَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ أَغْنِيَاءَ فَلَا أَحَدٌ يَقُومُ بِالْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ قَالَ لَهُ: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ أَلْفُ رِيَالٍ أَنَا عِنْدِي أَلْفَانِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا بَقِيَّةُ الْأَوْصَافِ لَوْلَا هَذَا اخْتِلَافُ مَا قَامَتِ الدُّنْيَا أَبَدًا، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ هُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنْ يُعْرِفَ بِهَذَا قُدْرَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ جَعَلَ هَذَا الْبَشَرَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَبِقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَفَاضِلُونَ تَفَاضُلًا كَبِيرًا فِيمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْغِنَى وَغَيْرِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْقَاعِدَةُ الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، الْآيَةُ: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لِمَاذَا لَا يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ السُّخْرِيَّةَ، وَأَيْضًا التَّسْخِيرَ؟
فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ لِأَنَّ اخْتِلَافَ الطَّبَقَاتِ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَهْزِئَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسَخَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْعَمَلِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ يَجْعَلُ طَبَقَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَهْزِئَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا].

قَوْلُهُ: ﴿رَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ] فِيهِ أَيْضًا شَيْءٌ مِنَ الْقُصُورِ، الرَّحْمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجَنَّةِ بِلَا شَكٍّ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا يُحَاطِبُهَا: «أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مِنْ أَسْأَاءٍ»^(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧] يَعْنِي: الْجَنَّةَ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: رَحْمَةُ اللَّهِ أَعَمُّ مِنْ هَذَا، حَتَّى رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ بِهَدَايَتِهِ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ، فَالْأَوَّلَى التَّعْمِيمُ دُونَ التَّخْصِيسِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُ الْمَفْسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أَيِ: أَنَّهُ الْجَنَّةُ، هَلْ هَذَا مِنْ تَأْوِيلِهِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، بَلْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي التَّفْسِيرِ، لَيْسَ تَأْوِيلًا؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ رَحْمَةٌ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، رَقْمُ (٤٨٥٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ، بَابُ النَّارِ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ، رَقْمُ (٢٨٤٦)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكرنا أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ لِلْجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ»^(١)، لَكِنْ كَوْنُهُ قَصْرَهَا عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الرَّحْمَةِ فَهَذَا قُصُورٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: مُجَادَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَاطِلِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا تَعْرِفُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالرَّسَالَةِ لَوْ صَدَّقُوا بِهَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ خَيْرَةِ الْعَرَبِ نَسَبًا، وَلَأَنَّهُ الْأَمِينُ الصَّادِقُ، وَهُمْ يُسَمُّوهُ الْأَمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بِالرَّسَالَةِ.

الفائدة الثانية: أَنَّ الْقَرْيَةَ تُطْلَقُ عَلَى الْمَدِينِ الْكَبِيرَةِ، بَلْ عَلَى أُمَّ الْمَدِينِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، قَرْيَتُهُ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ هِيَ مَكَّةُ، فِي عُرْفِنَا الْآنَ تُطْلَقُ الْقَرْيَةُ عَلَى الْمَدِينَةِ الصَّغِيرَةِ، وَلَوْ أَنَّكَ قُلْتَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ. لَا شَتَاوًا غَضَبًا، وَلَكِنْ يُقَالُ: الْقُرْآنُ بَيْنَنَا، الْقَرْيَةُ تُطْلَقُ حَتَّى عَلَى الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ؛ لِأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْقَرْيِ، وَهُوَ الْاجْتِمَاعُ.

الفائدة الثالثة: إِنْكَارُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا الَّذِينَ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

الفائدة الرابعة: إِقَامَةُ الدَّلِيلِ الَّذِي لَا انْفِكَاءَ عَنْهُ بِأَتَمِّمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ قَسَمَ رَحْمَةِ اللَّهِ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ فَهَذَا لَا يُمَكِّنُهُمْ إِنْكَارُهُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالذَّكِيَّ وَالْبَلِيدَ، وَالْعَاقِلَ وَالسَّفِيهَ، هُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا.

الفائدة الخامسة: الحكمة في أن الله عز وجل جعل الناس على درجات؛ لقوله: ﴿لِتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الفائدة السادسة: إثبات التعليل والحكمة لأفعال الله سبحانه وتعالى أي: أنه عز وجل يفعل الحكمة - لا بُدَّ أن يكون لحكمة - لقوله: ﴿لِتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لأنَّ اللام هنا للتعليل.

وتعليل أحكام الله الكونية موجود بكثرة في القرآن، والأحكام الشرعية كالإيجاب والتحرير والإباحة معلقة، فكل حكم من أحكام الله الكونية أو الشرعية لا بُدَّ له من حكمة.

ولكن هنا سؤال: هل هذه الحكم معلومة للخلق أو ليست معلومة؟

فالجواب: منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم؛ لأنَّ عقولنا قاصرة مهما بلغنا من العقل فهو قاصر، إذن خذ هذه الفائدة: جميع أحكام الله الكونية والشرعية معلقة بحكمة، لكن من الحكم ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، هكذا يجب.

فإن قال قائل: أيهما أبلغ في التعبد أن يعبد الله وهو لا يعرف الحكمة، أو أن يعبد الله وهو يعرف الحكمة؟

فالجواب: أما من جهة التدلل المطلق فتعبد الإنسان بشيء لا يعرف حكمته أبلغ من تعبده بشيء يعرف حكمته؛ لأنه إذا تعبد بشيء يعرف حكمته فإنه قد يتعبد لله من أجل هذه الحكمة، لكن إذا لم يعرف الحكمة صار أبلغ للتدلل، كأنه

يَقُولُ: سَاعَبُدُ اللَّهَ سَوَاءٌ عَرَفْتُ الْحِكْمَةَ مِنْ هَذَا أَوْ لَا.

مَثَالُ ذَلِكَ: رَمَى الْجَمْرَاتِ فِي الْحَجِّ، يَأْتِي الْإِنْسَانُ بِحَصَى مُعَيَّنَةٍ، وَيَرْمِيهَا فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ، بَيْنَمَا لَوْ أَتَى بِأَضْعَافِ تِلْكَ الْحَصَى بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ وَرَمَى فِي هَذَا الْمَكَانِ؛ لَعُدَّ هَذَا عَبَثًا، فَمَا الْحِكْمَةُ؟

الجواب:

أولاً: الْحِكْمَةُ أَنَّ ذَلِكَ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا كُلَّمَا رَمَى الْإِنْسَانُ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ.

ثانياً: أَنْ يَظْهَرَ بِذَلِكَ أَثَرُ التَّعَبُّدِ الْمَطْلُوقِ، حَيْثُ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ هَذَا الْفِعْلَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الْغَايَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ، وَلِهَذَا أَطْلَقَ الْفُقَهَاءُ رَحْمَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْأَحْكَامِ الَّتِي لَا تُعْلَمُ حِكْمَتُهَا اسْمَ تَعَبُّدِيَّةٍ، أَوْ هَذَا تَعَبُّدٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهُ إِلَّا إِقَامَةُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَوَازُ اسْتِخْدَامِ الْعَمَالِ، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الْحِكْمَةُ الْعَظِيمَةُ فِي هَذَا - أَيْ: فِي التَّفَاوُتِ - لِأَنَّهُ لَوْ لَا هَذَا التَّفَاوُتُ مَا عُرِفَ قَدْرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْغَنِيِّ بِالْغِنَى، وَعَلَى الْعَاقِلِ بِالْعَقْلِ، وَعَلَى الْقَوِيِّ بِالْقُوَّةِ، وَهَكَذَا، لَوْ لَا الْجُنُونُ مَا عُرِفَ قَدْرُ قِيَمَةِ الْعَقْلِ، وَلَوْ لَا الْمَرَضُ مَا عُرِفَ قَدْرُ قِيَمَةِ الصِّحَّةِ، إِذَنْ هَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمِنْهَا الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُونَ؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ عَاقِلٍ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الْإِشَارَةُ إِلَى خُطُورَةِ الْجَمْعِ - أَيُّ: جَمْعِ الْأَمْوَالِ - وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُنْسِي الْآخِرَةَ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَجَمْعُ الْأَمْوَالِ يُنْسِي الْآخِرَةَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي؛ وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهُ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»^(١).

وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، فَالدُّنْيَا وَالدِّينُ فِي الْغَالِبِ لَا يَجْتَمِعَانِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ فَقِيرًا مُسْتَقِيمًا عَلَى دِينِ اللَّهِ فَأَغْنَاهُ اللَّهُ فَصَارَ غِنَاهُ سَبَبًا لَطُغْيَانِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾ (١) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿وَاسْتِغْنَاهُ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾ (١) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧].



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَنِ لِيُثْوِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣].

• • • • •

﴿ وَلَوْلَا ﴾ هَذِهِ حَرْفٌ فِيهَا شَرْطٌ: (لَوْلَا كَذَا لَكَانَ كَذَا)، فَهِيَ حَرْفُ امْتِنَاعٍ
لُّوْجُودٍ ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا ﴾ لَكِنِ امْتِنَاعُ الْجَعْلِ لئَلَّا يَكُونَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا ﴾ عَلَى
الْكُفْرِ [بَدِيلٌ قَوْلِهِ: ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْوِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ ﴾].

﴿ لَّجَعَلْنَا ﴾ أَي: صَيَّرْنَا ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ ﴾ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿ لِيُثْوِيَهُمْ ﴾
قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَدَلٌ مِّنْ ﴿ لِمَن ﴾] بَدَلٌ اشْتِمَالٍ ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِيُثْوِيَهُمْ ﴾، وَالبَدَلُ هُوَ الْمُقْصُودُ بِالْحُكْمِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: لَجَعَلْنَا لِيُثْوِيَ مَنْ يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُقْفًا ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْقَافِ،
وَبِضْمِّهَا جَمْعًا] بَفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْقَافِ. أَي: سَقْفًا، مُفْرَدٌ، وَبِضْمِّهَا جَمْعًا
﴿ سُقْفًا ﴾، الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ بِهِذَا وَهَذَا، فَهَلْ يَعْني: ذَلِكَ أَتَاهُمَا قِرَاءَتَانِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ هُمَا قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُفْضَلْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَهُمَا

صَحِيحَانِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَسْلُوبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ إِذَا قَالَ بِكَذَا وَكَذَا فَهُمَا قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ.

إِذَنْ: يَجُوزُ أَنْ تُقْرَأَ: «لِبُيُوتِهِمْ سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ» أَوْ «لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَالدَّرَجِ مِنْ فِضَّةٍ] أَيْضًا ﴿عَلَيْهَا

يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَعْلُونَ إِلَى السَّطْحِ].



(الآية ٣٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيُؤْتُوهُمْ أَتُونَا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ﴾ [الزخرف: ٣٤].

• • • • •

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْتُوهُمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أيضًا ﴿أَتُونَا﴾ يعني: من فضة، ﴿و﴾ جعلنا لهم (سُرْرًا) يعني: من فضة جمع سَرِير ﴿عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ﴾ أي: يَعْتَمِدُونَ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذَهَبًا.

استمع لهذا التصوير يعني: لولا أن يكفر الناس جميعًا لجعلنا للكافر هذه البيوت، ﴿سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾، سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ يعني: بدل ما يكون السَّقْفُ مِّنْ خَشَبٍ أَوْ مِّنْ صَبَّاتٍ أَسْمَنَتْ يَكُونُ مِّنْ فِضَّةٍ، والمرادُ فِضَّةٌ لَامِعَةٌ تَجْذِبُ النَّظَرَ، وَتَسُرُّ الْعَيْنَ ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قِيلَ: إِنَّهَا الدَّرَجُ؟

وقال بعض المتأخرين: إِنَّهَا الْمَصَاعِدُ الْكَهْرِبَائِيَّةُ الَّتِي تُسَمَّى (أَسَانِسِيرَ، وَلِفَتَ، وَمَضْعَدَ)، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الدَّرَجَ الْعَادِيَّةَ لَا تَلِفَتْ النَّظَرَ كَثِيرًا؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يعلون حتى يصلوا إلى السَّقْفِ، وَأَيًّا كَانَ هَذَا أَوْ هَذَا، فَإِنَّهَا دَرَجٌ غَرِيبَةٌ لَيْسَتْ كالدَّرَجِ الْمَعْتَادِ.

والثالث ﴿أَتُونَا﴾ المفسر رحمه الله يقول: [مِنْ فِضَّةٍ] بِنَاءٌ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ﴿سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُتَعَيِّنٍ، بَلْ نَقُولُ: أَبْوَابًا فَخْمَةً لَيْسَتْ كَالْمَعْتَادِ، سِوَاءٍ مِّنْ فِضَّةٍ، أَوْ مِّنْ حَدِيدٍ، أَوْ مِّنْ خَشَبٍ، الْمَهْمُ أَنَّهَا أَبْوَابٌ غَيْرُ مُعْتَادَةٍ.

﴿وَسِرًّا﴾ جَمْعُ سَرِيرٍ، وَهُوَ مَا يُجْلَسُ عَلَيْهِ.

﴿عَلَيْهَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أَيْضًا مَعَ السُّرْرِ مُتَكَلِّمًا يُتَكَلَّمُ عَلَيْهِ. أَيُّ: يُعْتَمَدُ، سَوَاءٌ مِنْ

خَلْفِ الظَّهْرِ، أَوْ مِنَ الْيَمِينِ، أَوْ مِنَ الشَّمَالِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الْإِرْفَافِ.



الآية (٣٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

• • • • •

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَزُخْرَفًا ﴾ هَذَا الذَّهَبُ، فِيهِ ﴿ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أَبْوَابٌ فَخْمَةٌ ﴿ وَسُرُرًا ﴾ مُرِيحَةٌ ﴿ وَزُخْرَفًا ﴾ يَعْنِي: ذَهَبًا، خَمْسَةُ أَشْيَاءَ. قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْمَعْنَى: لَوْلَا خَوْفُ الْكُفْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ إِعْطَاءِ الْكَافِرِ مَا ذُكِرَ لِأَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ؛ لِقَلَّةِ خَطَرِ الدُّنْيَا عِنْدَنَا، وَعَدَمِ حَظِّهِ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّعِيمِ].

وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ مَيَّالَةً إِلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالتَّرَفِ، فَإِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ هَذَا التَّرَفَ لِلْكَافِرِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُغْرِيه وَيُضِرُّهُ، كَمَا يُفْعَلُ الْآنَ -بِالنِّسْبَةِ لِلْمُنْصَرِّينَ ضَلَالِ النَّصَارَى-، يَمْشُونَ إِلَى الْأَقَالِيمِ الْفَقِيرَةِ وَيُزَيِّنُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَهُؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ يَتَّبِعُونَهُمْ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ الْمَالِ، وَالْفَخْرِ وَالْحَيَلَاءِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾.

يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [(إِنْ) مُحْفَفَةٌ مِّنَ الثَّقِيلَةِ] الثَّقِيلَةُ: الْمُسَدَّدَةُ، وَالْمُخَفَّفَةُ: مَا حُذِفَ تَشْدِيدُهَا. [﴿ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا ﴾ فَ(مَا) زَائِدَةٌ، وَالتَّشْدِيدُ بِمَعْنَى (إِلَّا)، أَيْ: فِيهِمَا قِرَاءَتَانِ: لَمَّا وَلَمَّا، [(فَإِنْ) نَافِيَةٌ] خَلَطَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، الْآنَ (إِنْ) إِعْرَابُهَا عَلَى أَنَّهَا مُحْفَفَةٌ مِّنَ الثَّقِيلَةِ، فِيهِ مُؤَكَّدَةٌ، ثُمَّ قَالَ فِي الْآخِرِ: فَ(إِنْ) نَافِيَةٌ.

وَفَرَّقُ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، لَكِنَّ هَذَا يَنْبَغِي عَلَى (لَمَّا) إِنْ قُرِئَتْ بِالتَّخْفِيفِ
فَ(إِنْ) مُحْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَإِنْ قُرِئَتْ بِالتَّشْدِيدِ فَ(إِنْ) نَافِيَةٌ؛ فَصَارَ اخْتِلَافُ الْإِعْرَابِ
فِي (إِنْ) مَبْنِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ الْقِرَاءَةِ فِي (لَمَّا) فَعَلَى قِرَاءَةِ التَّشْدِيدِ تَكُونُ (إِنْ) نَافِيَةً،
وَلَمَّا بِمَعْنَى (إِلَّا).

وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أَيْ: مَا كُلُّ نَفْسٍ
إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ، وَأَمَّا إِذَا قُرِئَتْ (لَمَّا) بِالتَّخْفِيفِ فَ(إِنْ) مُحْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَتَكُونُ
(مَا) زَائِدَةً، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. لِأَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ.

إِذَنْ ﴿لَمَّا﴾ فِيهَا قِرَاءَتَانِ الْأُولَى التَّشْدِيدُ، وَبِنَاءٌ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَكُونُ (إِنْ)
نَافِيَةً وَ﴿لَمَّا﴾ بِمَعْنَى (إِلَّا)، وَالشَّاهِدُ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾
[الطارق: ٤]، أَيْ: مَا كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَّةُ «لَمَّا» بِالتَّخْفِيفِ، وَعَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَكُونُ (إِنْ) مُحْفَفَةٌ مِنَ
الثَّقِيلَةِ بِمَعْنَى (إِنْ) وَتَكُونُ (لَمَّا) زَائِدَةً وَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِمَتَاعِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا. الْمُسَرِّحُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَمَجَ الْقِرَاءَتَيْنِ، وَلَكِنَّ هَذَا هُوَ التَّفْصِيلُ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا -الدُّنْيَا- ثُمَّ يَزُولُ
﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.]

﴿وَالْآخِرَةُ﴾ لَوْ قِيلَ: كُلُّ الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ وَعَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ وَسَلَامَتُهُمْ مِنْ
شِدَّةِ هَوْلِ الْقِيَامَةِ؛ لَوْ قِيلَ ذَلِكَ لَكَانَ أَعَمَّ، فَصَارَتْ الدُّنْيَا لِلْكَفَّارِ مَهْمًا أُعْطُوا فَإِنَّهُ
نَعِيمُهُمْ، الْآخِرَةُ لِلْمُتَّقِينَ، جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، مَهْمًا بَلَغَتْ مِنَ النَّعِيمِ فَإِنَّهَا

سَجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الْجَحِيمِ فَإِنَّهَا جَنَّةُ الْكَافِرِ.

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ فِي تَرْجَمَةِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ ابْنُ حَجَرٍ قَاضِي الْقَضَاةِ فِي مِصْرَ، فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى مَقَرِّ عَمَلِهِ عَلَى الْعَرَبَةِ، نَحَرُهَا الْخَيُْولُ، أَوْ الْبِغَالُ فِي مَرْكَبٍ، مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ زَيَّاتٍ -يَعْنِي: يَبِيعُ الزَّيْتَ- فَاسْتَوْقَفَ الْيَهُودِيَّ قَاضِي الْقَضَاةِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ نَبِيَّكُمْ يَقُولُ: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١) كَيْفَ يَتَّقَى هَذَا مَعَ حَالِي وَحَالِكَ، أَنْتَ الْآنَ فِي نَعِيمٍ تَحْرُكُ الْخَيُْولَ، وَلَكَ جَاهٌ وَشَرَفٌ وَمَنْزِلَةٌ، وَهُوَ الْيَهُودِيُّ بِهَذَا الدَّلِّ؛ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ وَتَعَبٌ، فَكَيْفَ هَذَا؟!

قَالَ: نَعَمْ، مَا أَنَا فِيهِ الْآنَ بِالنَّسْبَةِ لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ سَجْنٌ؛ لِأَنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ أَعْلَى وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا، أَمَّا بِالنَّسْبَةِ لَكَ فَأَنْتَ فِي جَنَّةٍ بِالنَّسْبَةِ لِعَذَابِ النَّارِ؛ لِأَنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ فَأَنْتَ فِي النَّارِ، وَيُعْتَبَرُ مَا فِيهِ الْيَهُودِيُّ الْآنَ: جَنَّةٌ، لِأَنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ فِيمَا يَبْدُو لِي -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ يَنْشُدُ الْحَقِيقَةَ، يُرِيدُ الْحَقِيقَةَ، فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^(٢).

سُبْحَانَ اللَّهِ! فَإِنَّ نَسَانَ الْعَاقِلِ الَّذِي يُرِيدُ الْحَقِيقَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَهْتَدِيَ.

الْمُهْمُ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ: ﴿لِيُثْبِتَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ: مَا هَذَا إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

انْظُرْ: مَتَاعٌ كَالْمَتَاعِ يَحْمِلُهُ الْمُسَافِرُ ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَتْ بِالْإِنْسَانِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الزَّوَالِ، إِمَّا أَنْ تَزُولَ الدُّنْيَا عَنْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَزُولَ هُوَ عَنِ الدُّنْيَا؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/٥٤٦).

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ^(١)

صَحِيحٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَذَكَّرَ أَيْنَ مَأْلُهُ، إِمَّا مَوْتَ مُبَكَّرٍ، وَإِمَّا هَرَمَ مُخْرِفٍ، الْآنَ يُوجَدُ الَّذِينَ بَلَّغُوا عُمُرًا طَوِيلًا، وَوَصَلُوا إِلَى حَدِّ الْهَرَمَةِ، هُمْ بَأَنْفُسِهِمْ مُتَضَايِقُونَ وَأَهْلُوهُمْ مُتَضَايِقُونَ، تَحِدُ الْإِنْسَانَ يَتَضَايِقُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَايِقَ، أَوْ مَوْتَ عَاجِلٍ وَيَنْتَهِيَ الْمَوْضُوعُ.

هَذَا حَالُ الدُّنْيَا فِي الْوَاقِعِ، وَلِذَلِكَ الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ، بِادْرِ الْعُمَرِ قَبْلَ فَوَاتِهِ، اْعْمَلْ صَالِحًا، وَطَلِّبِ الْعِلْمَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، لَكِنْ بَشْرٌ أَنْ يَكُونَ الْعَالَمُ عَامِلًا، أَمَّا عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ فَالْجَهْلُ - وَاللَّهُ - خَيْرٌ مِنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ هَذِهِ الْمُتَعَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ مَا هِيَ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَهِيَ زَائِلَةٌ. وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ لَا يَتَعَلَّقُ الْإِنْسَانُ بِهَا، وَأَنْ لَا يَهْتَمَّ بِهَا، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ عَائِشٌ بِدُونِهَا وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: التَّزْهِيدُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، وَأَنْ لَا تَهْتَمَّ بِهَا، لَا تَعْلُقْ قَلْبَكَ بِمَظَاهِيرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هَلَكْتَ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مِنَ الدُّنْيَا مَا يُعْجِبُهُ قَالَ: «لَيْتَكَ إِنْ الْعَيْشُ عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٢)، لَيْتَكَ يَغْنِي: إِجَابَةُ لَكَ؛

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، مع الهوامع (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب دعاء النبي ﷺ: أصلح الأنصار والمهاجرة، رقم (٣٧٩٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِيَصْرِفَ قَلْبَهُ عَمَّا يُعِجِبُهُ مِمَّا رَأَاهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ وَطَّنَ النَّفْسَ وَقَالَ: «إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ
الْآخِرَةِ» وَاللَّهُ هَذَا هُوَ الْحَقُّ.

أَمَّا عَيْشُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ مَهْمَا طَابَ لَكَ مَخْشَوْفٌ بِنَكْدٍ قَبْلَهُ وَنَكْدٍ بَعْدَهُ؛ لَأَنَّكَ لَنْ
تُحْصِلَهُ غَالِبًا إِلَّا بِتَعَبٍ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَتْهُ هَلْ سَيَقَى لَكَ هَذَا أَوْ لَا يَبْقَى؟ هَلْ سَتَبْقَى
لَهُ أَوْ لَا تَبْقَى؟ وَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: إِمَّا تَمُوتُ وَتَتْرُكُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَهْلِكَ وَأَنْتَ
حَيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الْبُشْرَى لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ هُمُ الْآخِرَةُ، فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلْمُتَّقِينَ، فِيهِ
الْبَشَارَةُ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُتَّقِيَ إِذَا انْتَقَلَ مِنَ الدُّنْيَا فَلَا يَنْدَمُ؛ لِأَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى دَارٍ أَحْسَنَ
وَأَفْضَلَ مِمَّا فَارَقَهُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الْحَثُّ عَلَى التَّقْوَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِكْرَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ يَسْتَثِيرُ
النَّفْسَ حَتَّى يَصِلَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْوَصْفِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ عَلَى الثَّوَابِ.



الآلات (٣٦-٣٨)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿ وَلَئِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ﴾ ﴾ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقُرَيْنِ ﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨].

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَحْوَالَ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْكُفْرِ لَمَتَّ الْكَفَّارَ بِمَا سَمِعْتُمْ، وَهَذِهِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ تَحْمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ فَسَّرَهَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِـ[يُعْرِضُ]، وَلَكِنَّ التَّفْسِيرَ الْمُنَاسِبَ أَنَّ
مَعْنَى: ﴿يَعِشْ﴾ أَيُّ: يَتَعَامَى حَتَّى يَرَى رُؤْيَا الْأَعْيَى الَّذِي يُبْصِرُ فِي النَّهَارِ وَلَا يُبْصِرُ
فِي اللَّيْلِ، فَمَعْنَى: ﴿يَعِشْ﴾ أَيُّ: يَتَعَامَى كَمَا فَسَّرَهَا بِذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ
الْمُفَسِّرِينَ، وَلَكِنَّ الْمُبْشِّرَ فَسَّرَهَا بِـ[يُعْرِضُ]؛ لِأَنَّهُ مِنْ لَازِمِ التَّعَامَى الْإِعْرَاضُ.

قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ] فَجَعَلَ الْمُفَسِّرُ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ يَعْنِي: الْقُرْآنَ، وَأَضَافَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّ إِنْزَالَهُ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ، هَكَذَا مَشَى الْمُفَسِّرُ رَحْمَةً لِلَّهِ.

وَالصَّوَابُ: خِلَافُ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِ﴿ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ تَذَكُّرُ الرَّحْمَنِ، يَعْنِي: مَنْ

تَعَامَى عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فِي قَلْبِهِ وَاسْتَحْضَارِهِ لِعَظَمَةِ رَبِّهِ وَجَلَالِهِ؛ فَإِنَّهُ يُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَيَكُونُ هَذَا جَزَاءً عَلَى إِعْرَاضِهِ وَتَعَامِيهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

فَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ لَيْسَ الْقُرْآنَ، بَلِ الْمُرَادُ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ذِكْرُ اللَّهِ نَفْسِهِ. يَعْنِي: يَغْفُلُ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ بِقَلْبِهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَيَتَّبِعْ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ هَلْ هَذَا يَكُونُ بِالتَّقْصِيرِ فِي أُمُورِ الطَّاعَاتِ أَوْ انْتِهَاكِ الْمَحْرَمَاتِ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَسْأَلَةٍ قَلْبِيَّةٍ ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ يَتَعَامَى. فَإِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ صَلَحَتِ الْجَوَارِحُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نُسِبُ لَهُ] وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْمُنَاطَبِ، وَإِلَّا فَإِنَّ مَعْنَى ﴿نُقِضَ﴾ أَيُّ: نُهِىَ لَهُ شَيْطَانًا يَحُلُّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَسْتَوِي الشَّيْطَانُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾: ﴿فَهُوَ﴾ أَيُّ: الشَّيْطَانُ ﴿لَهُ﴾ أَيُّ: لِلْعَاشِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿قَرِينٌ﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَا يَفَارِقُهُ]، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ فَعَّالٌ مُرِيدٌ مُتَحَرِّكٌ قَلْبًا وَقَالَ بَاءً، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَشْتَغَلَ

بَشْيٍ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَلَا بُدَّ، لَا تَجِدُ أَحَدًا قَلْبُهُ سَاكِنٌ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يُرِيدُ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ.

ولهذا جاء في الحديث في الأسماء: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ»^(١) هَمَامُ الْإِرَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْحَارِثُ الْعَمَلُ، كُلُّ إِنْسَانٍ هَكَذَا لَا بُدَّ. فَيَهْيئُ اللَّهُ لَهُ هَذَا الشَّيْطَانُ الَّذِي يُقَارِنُهُ وَلَا يُفَارِقُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِالنِّسْبَةِ لِقُرْنَاءِ الشُّوْءِ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ مُنْحَرِفٌ يَظُنُّ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَهُ رَبًّا يَدْعُوهُ، هَلْ يُصَاحِبُهُ أَوْ يُصَادِقُهُ؟

فالجواب: لَيْسَ هَذَا صَحِيحًا، بَلْ يَجْلِسُ مَعَهُ لِلدَّعْوَةِ لِلْحَقِّ وَيُفَارِقُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ إِذَا لَازَمَهُ أَنْ يَتَأَثَّرَ، وَلَا نَذْرِي هَلْ يُؤَثِّرُ الْمُسْتَقِيمُ عَلَى الْمُنْحَرِفِ، أَوِ الْمُنْحَرِفُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ.

وَالْمُشَاهَدُ الْآنَ فِي الْغَالِبِ أَنَّ الْمُنْحَرِفَ هُوَ الَّذِي يُؤَثِّرُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ، هَذَا لَا نَعْلَمُهُ، فَأَنْتَ لَا تَقَارِنُهُ، تَأْتِي تَزْوَرُهُ أَوْ تَدْعُوهُ إِلَى بَيْتِكَ فَقَطْ. أَمَّا أَنْ تُلَازِمَهُ وَتَجْعَلَهُ صَاحِبًا لَكَ فَأَنْتَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَالْإِنْسَانُ تُسَوِّلُ نَفْسُهُ أَنَّهُ إِذَا صَاحِبَهُ كَانَ سَبَبًا فِي إِقَامَتِهِ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ مِثْلَ الْمَرْأَةِ يُخْطِبُهَا إِنْسَانٌ مُنْحَرِفٌ، وَتَرْغَبُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ، وَتَقُولُ فِي نَفْسِهَا، أَوْ يَقُولُ وَلَيْهَا: يَهْدِيهِ اللَّهُ. لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِ إِذَا تَزَوَّجَ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ تَكُونُ مُنْحَرِفَةً بِوَاسِطَةِ هَذَا الزَّوْجِ.

وَالوَاجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ أَخٌ مُسْتَقِيمٌ ثُمَّ انْحَرَفَ - مِنْ نَاحِيَةِ نَصِيحِهِ أَوْ تَرْكِهِ بِالْكُلِّيَّةِ - لَأَنَّ الْإِنْحِرَافَ يَنْصَبُ عَلَى الْمَعَاصِي وَعَلَى الدُّنْيَا؛ الْوَاجِبُ أَنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٥/٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، من حديث أبي وهب الجشمي.

يَدْعُوهُ، فَالْنَّبِيُّ ﷺ أَلَمْ يَدْعُ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، فَلِمَاذَا لَا يَدْعُوهُ؟!

وَقَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَا تَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينِ ﴿لِيَصُدُّوهُمْ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيِ: طَرِيقِ الْهُدَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أَيِ: الْعَاشُونَ الَّذِينَ صَدَّتْهُمْ الشَّيَاطِينُ ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: [فِي الْجَمْعِ رِعَايَةٌ مَعْنَى (مَنْ)].

الشَّيْطَانُ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ - إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ زَيْنٌ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَلَكِنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ، وَهُوَ لَا يَهْتَدِي هُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ أَعْمَالًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، الْجَوَابُ بَيْنَهُ اللَّهُ، قَالَ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ زَيْنٌ لَهُمْ هَذَا، وَقَالَ: أَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ، أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ. وَسَوَّلَ لَهُمْ، وَأَمَلَى لَهُمْ، حَتَّى تَبْعُوهُ.

وَهَذَا قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَا تَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينِ ﴿لِيَصُدُّوهُمْ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيِ: سَبِيلِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ الْوَاوُ تَعُوذُ عَلَى الْعَاشِينَ ﴿وَلَا تَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ ﴿مُهْتَدُونَ﴾ أَيِ: عَلَى هُدًى، وَهَذَا غَايَةٌ مَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَنْ يَتِمَّادَى الْإِنْسَانُ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [فِي الْجَمْعِ رِعَايَةٌ مَعْنَى (مَنْ)] الْجَمْعُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، ﴿وَلَا تَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ﴾ فِيهَا رِعَايَةٌ مَعْنَى (مَنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ كَلِمَةُ (مَنْ) وَ(مَا)، وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْأَلْفَافِ الْعَامَّةِ، يَجُوزُ مُرَاعَاةُ مَعْنَاهَا وَمُرَاعَاةُ لَفْظِهَا،

فَاللَّفْظُ مُفْرَدٌ ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾؛ وَلَذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ بِالْمُفْرَدِ ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾،
﴿نُقِضَ لَهُ﴾ أَيْضًا مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ ﴿فَهُوَ لَهُ﴾ مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ، ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْذُوبُهُمْ﴾
مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى ﴿وَيَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كَذَلِكَ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى.

إِذَنْ: إِذَا أَتَيْتَكَ (مَنْ) مَوْصُولَةٌ كَانَتْ أَوْ شَرْطِيَّةٌ فَلَكَ أَنْ تُرَاعِيَ فِي ضَمِيرِهَا
اللَّفْظَ فَتَجْعَلَهُ مُفْرَدًا، وَالْمَعْنَى فَتَجْعَلَهُ حَسَبَ مَا أُريدَ بِهَا، وَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق: ١١]، كُلُّ
هَذَا مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مُرَاعَاةُ الْمَعْنَى ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ مُرَاعَاةُ
اللَّفْظِ، فَتَجِدُ هَذِهِ الْآيَاتِ تَارَةً رُوعِي اللَّفْظِ، وَتَارَةً رُوعِي الْمَعْنَى.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا﴾ الْعَاشِي بِقَرِينِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالَ﴾
لَهُ: (يَا) لِلتَّنْبِيهِ ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيُّ: مِثْلُ بُعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ ﴿فَيَسَّ الْقَرِينُ﴾ أَنْتَ لِي].

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا﴾ يَعْنِي: الشَّيْطَانُ وَقَرِينُهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَرُّاً كُلُّ وَاحِدٍ
مِنَ الْآخِرِ ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ (يَا) هَذِهِ لِلتَّنْبِيهِ، وَلَا تَصِحُّ أَنْ
تَكُونَ لِلنَّدَاءِ؛ لِأَنَّ (يَا) الَّتِي لِلنَّدَاءِ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى اسْمٍ، لَا تَدْخُلُ عَلَى حَرْفٍ كَمَا
هُنَا، وَلَا عَلَى فِعْلٍ، فَإِذَا وُجِدَتْ دَاخِلَةً عَلَى حَرْفٍ أَوْ فِعْلٍ فَهِيَ لِلتَّنْبِيهِ ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ﴾ وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ
[يس: ٢٦] فَهِيَ لِلتَّنْبِيهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ (يَا) دَاخِلَةٌ عَلَى مُنَادَى مُحَذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَا هَذَا
لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ. يَعْنِي: تُقَدَّرُ الْمُنَادَى اسْمًا: يَا هَذَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيُّهَا أُولَى تُقَدَّرُ مَنَادَى مُنَاسِبًا لِلْسِّيَاقِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِحَّ حُلُولُ (يَا) فِي هَذَا الْمَكَانِ، أَوْ نَقُولُ: الْأَصْلُ عَدَمُ التَّقْدِيرِ. وَنَجْعَلُ الْيَاءَ لِلتَّنْبِيهِ؟
فَالْجَوَابُ: الثَّانِي أُولَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ شَيْءٌ مَحذُوفٌ أَوْ لَا، فَالْأُولَى أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَحذُوفٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ]، وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ تَغْلِيْبٌ، وَهُوَ تَغْلِيْبُ الْمَشْرِقِ عَلَى الْمَغْرِبِ، وَالتَّغْلِيْبُ هَذَا جَارٍ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ»^(١) إِذَا جَعَلْنَا مُطْلَقَ الْأَذَانِ هُوَ الْأَذَانُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ دُخُولُ الْوَقْتِ.

أَمَّا إِذَا جَعَلْنَا الْأَذَانَ بِمَعْنَى الْإِعْلَامِ فَإِنَّ الْأَذَانَيْنِ لَيْسَ فِيهَا تَغْلِيْبٌ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْإِقَامَةِ وَالْأَذَانِ يُسَمَّى الْأَذَانُ، لَكِنْ قَوْلُهُمُ: الْقَمْرَانِ. يَعْنُونَ بِذَلِكَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَوْلُهُمُ: الْعُمَرَانِ. يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، هَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ، فَيَكُونُ ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيُّ: بَعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنْ ذَكَرَ بَلْفُظَ الْمَشْرِقِ تَغْلِيْبًا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيُّ: مَشْرِقِ الشَّمْسِ شِتَاءً وَمَشْرِقِهَا صَيْفًا؛ لِأَنَّ بَيْنَهُمَا مَسَافَةً عَظِيمَةً جَدًّا لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلَا الْمَعْنِيَيْنِ صَحِيحٌ. يَعْنِي: سَوَاءٌ جَعَلْنَا اللَّفْظَ لِلتَّغْلِيْبِ أَوْ لَا، وَالْمُرَادُ أَنَّ هَذَا الْعَاشِي الَّذِي أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ إِذَا جَاءَ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَقَالَ: لَيْتَكَ بَعِيدٌ عَنِّي وَأَنَا بَعِيدٌ عَنْكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب بين كل أذانين صلاة لمن شاء، رقم (٦٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب بين كل أذانين صلاة، رقم (٨٣٨)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ) أحيانًا تَأْتِي فِي الْقُرْآنِ مُفْرَدَةً، وأحيانًا تَأْتِي جَمْعًا، وأحيانًا تَأْتِي تَشْنِيعًا؟

فالجواب: الْمَشَارِقُ وَالْمَشْرِقُ وَالْمَشْرِقَيْنِ، تَأْتِي عَلَى هَذِهِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩] هَذَا مُفْرَدٌ.

وَالْمُرَادُ بِالْمَشْرِقِ هُنَا الْجِهَةُ؛ لِأَنَّ الْجِهَاتِ أَرْبَعٌ: شَرْقٌ، وَغَرْبٌ، وَجَنُوبٌ، وَشَمَالٌ. فَالْمَشْرِقُ يَعْنِي: جِهَةَ الْمَشْرِقِ، وَالْمَغْرِبُ يَعْنِي: جِهَةَ الْمَغْرِبِ.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] بِالْجَمْعِ، فَالْمُرَادُ مَشَارِقُ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ مَشْرِقٌ، أَوِ الْمُرَادُ بِالْمَشَارِقِ مَشَارِقُ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ مَشْرِقٌ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا رَأَيْتَهَا تَنْتَقِلُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ، وَمِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ.

أَمَّا ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] الْمُثْنَى، فَالْمُرَادُ بِذَلِكَ مَشْرِقَا الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَبَسَّ الْقَرْيُنِ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِنْشَائِيَّةٌ لِلذَّمِّ، قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَنْتَ] يَعْنِي: أَنَّهُ قَدْ حُذِفَ فِيهَا الْمُخْصُوصُ؛ لِأَنَّ (بَسَّ) وَ(نَعَمَ) لَا بُدَّ فِيهِمَا مِنْ فَاعِلٍ وَمَخْصُوصٍ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ النَّحْوِ، وَلَا عَلَيْنَا مِنْهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: التَّحْذِيرُ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا غَفَلْتَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللَّهِ وَسَاوَسَ الشَّيْطَانُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَاقِبُ الْعَبْدَ بِمَا يَفْتَضِيهِ الذَّنْبُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذَنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فَهَذَا الرَّجُلُ لَمَّا أَخْلَى قَلْبَهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَوَّقَبَ أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّهُ الشَّيْطَانُ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: الْحَذَرُ مِنْ قُرْآنِ السُّوءِ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَيْسَ اسْمًا خَاصًّا لِشَيَاطِينِ الْجِنِّ، بَلْ حَتَّى الْإِنْسُ هُمْ شَيَاطِينُ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾
مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ⑥ [الناس: ١-٦].

فَفِي هَذَا التَّحْذِيرِ مِنْ قُرْآنِ السُّوءِ، وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قُرْآنِ السُّوءِ؛ حَيْثُ شَبَّهَ قَرِينَ السُّوءِ أَوْ جَلِيسَ السُّوءِ بِنَافِخِ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيمَةً^(١)، ثُمَّ إِنَّ الْوَاقِعَ كَذَلِكَ.

فَمَا أَكْثَرَ مَا يَمُرُّ عَلَيْنَا مِمَّنْ يَتَّصِلُونَ بِنَا يَشْكُونَ مِنْ قَوْمٍ كَانُوا مُسْتَقِيمِينَ وَأُئِمَّةَ مَسَاجِدَ، أَوْ مُؤَذِّنِي مَسَاجِدَ اتَّصَلَ بِهِمْ أَنْاسٌ مِنْ أَصْحَابِ السُّوءِ، فَانْحَرَفُوا انْحِرَافًا كَامِلًا، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- إِذَا انْحَرَفُوا -نَسَأَلُ اللَّهَ الثَّبَاتَ- يَكُونُ انْحِرَافُهُمْ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، كَالْمَاءِ الَّذِي حَبَسْتَهُ ثُمَّ أَطْلَقْتَ الْحَبْسَ سَيَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ.

فَالْهِمُّ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ مِنَ الْجِنِّ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمُلَازِمَ أَشَدَّ تَأْثِيرًا مِنَ الْعَابِرِ الَّذِي يُلَازِمُكَ، وَيَبْقَى قَرِينًا مَعَكَ أَشَدَّ تَأْثِيرًا مِنَ الْعَابِرِ، بِمَعْنَى: أَنَّكَ لَوْ جَلَسْتَ مَعَ إِنْسَانٍ صَاحِبِ سُوءٍ لَمُدَّةٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ رَبُّمَا تَأْتَرَتْ بِهِ وَرُبَّمَا لَا تَتَأْتَرُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مُقَارِنًا فَإِنَّهُ سَيُؤْتِرُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

أَقُولُ هَذَا لَتَحْذَرُوا مِنَ الْاسْتِمْرَارِ مَعَ قُرْنَاءِ السُّوءِ؛ وَلَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَتَى عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَرِينُ سُوءٍ فَإِنَّهُ يَحِبُّ عَلَيْكُمْ الْبُعْدَ عَنْهُ، لَا تَقُلْ: أَخَشَى أَنْ يَتَأْتَرَ، أَخَشَى أَنْ يَقُولَ: لَمَّاذَا كَانَ الرَّجُلُ صَاحِبًا لِي ثُمَّ فَارَقَنِي؟ لَا يُهِمُّكَ هَذَا، الَّذِي يُهِمُّكَ هُوَ نَفْسُكَ فَاتَّقِذْهَا.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لَمَّا تَعَامَى بِعَيْنِهِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ، وَبَقَلْبِهِ أَيْضًا؛ قِيضَ لَهُ هَذَا الشَّيْطَانُ الَّذِي يَصُدُّهُ عَنِ الْهُدَى وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُهْتَدٍ ﴿وَلَا تَنْتَهِي لَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وَمَا أَكْثَرَ هَذَا! أَهْلُ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَى بَدْعِهِمْ، صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً، أَلَمْ يَكُونُوا قَدْ اسْتَحْسَنُوهَا؟ فَلَمَّا إِذَا اسْتَحْسَنُوهَا وَهِيَ بِدْعَةٌ مُضِلَّةٌ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ صَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، أَهْلُ الْأَفْكَارِ الرَّدِيئَةِ، كَالْعَلَمَانِيِّينَ، وَالشُّيُوعِيِّينَ، وَالْبَعْثِيِّينَ، وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ، لَمَّاذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ؟ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ رَكِبَ قُلُوبَهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَجَعَلَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا السَّيِّئَ حَسَنٌ، وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الْفِتْنَةِ أَنْ يَرَى الْإِنْسَانُ السَّيِّئَ حَسَنًا فَيَمْضِي فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَجَهُّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ فَاسْتَمَرُّوا فِي الْبَاطِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا الْقَرِينَ فِي الدُّنْيَا يَتَبَرَّأُ مِنْ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ مَعَ تَمَنِّيهِ هَذَا الَّذِي لَنْ يُدْرِكَ مِنْهُ شَيْئًا، يُنْبِي عَلَى قَرِينِهِ هَذَا بِالذَّمِّ وَالْقَدْحِ فَيَقُولُ: فَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْقُرْنَاءِ مَنْ هُوَ قَرِينٌ خَيْرٌ وَقَرِينٌ سُوءٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا أُبَيِّنَ شَيْءٌ؛ حَيْثُ قَالَ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ» يَعْنِي: يُعْطِيكَ هَدِيَّةً، «وَأَمَّا أَنْ يَبِيعَ، وَأَمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً، وَالْجَلِيسُ السُّوءُ كَنَافِخِ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ» بِالشَّرِّ الَّذِي يَتَطَايَرُ مِنَ النَّارِ إِذَا نُفِخَتْ «وَأَمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيمَةً»^(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ تَمْنِيَكُمْ وَنَدْمُكُمْ ﴾ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ أَيِ: تَبَيَّنَ لَكُمْ ظُلْمُكُمْ بِالْإِشْرَاكِ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَنْفُسَكُمْ ﴾ مَعَ قُرَنَائِكُمْ ﴾ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ عِلَّةٌ لَتَقْدِيرِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ النَّفْيِ وَ(إِذْ) بَدَلٌ مِنَ الْيَوْمِ].
يَعْنِي: لَا يَنْفَعُكُمْ الْإِشْرَاكِ فِي الْعَذَابِ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ لَيْسَتْ لِلتَّلْعِيلِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَفْسِّرُ، بَلْ هِيَ فَاعِلٌ (يَنْفَعُ)، وَالْمَعْنَى لَا يَنْفَعُكُمْ اشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ.

وَوَجْهٌ ذَلِكَ: أَنَّهُ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عُذِّبَ وَرَأَى غَيْرَهُ يُعَذَّبُ هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَتَسَلَّى، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَشْتَرِكُ أَهْلُ النَّارِ فِي الْعَذَابِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ هَذَا شَيْئًا. هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ، أَمَّا الْمَفْسِّرُ فَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ عِلَّةً فِي تَقْدِيرِ اللَّامِ أَيِ: لَا تَنْفَعُكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ، وَلَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ اللَّفْظِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ الْمُشْتَرِكِينَ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ لَا يَنْفَعُهُمُ الْاِشْتِرَاكُ، بخلافِ
الاشترَاكِ فِي الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُسَلِّي الْإِنْسَانَ، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِ؛ وَهَذَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ
فِي رِثَاءِ أَخِيهَا صَخْرٍ:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي^(١)

الفائدة الثانية: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَمَا ظَلَمُوا الْقَوْلَ: ﴿إِذْ
ظَلَمْتُمْ﴾.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُمْ - أَيُّ: الْمُعَذِّبِينَ - يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي الْعَذَابِ،
وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُسَلِّهِمْ وَلَا يُهَوِّنُ عَنْهُمْ الْمُصِيبَةَ.



(١) ديوان الخنساء ط. دار المعرفة (ص: ٧٢)، الكامل للمبرد (١/ ١٦).

الآية (٤٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ٤٠].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بَيْنَ، أَيْ: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

الهمزة للنفي يَعْنِي: أَنْكَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ، وَلَا تَهْدِي الْعُمْى؛ لِأَنَّ هَذَا مَرْكُوبٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أَيْ: بَيْنَ، وَالْمَرَادُ بِالسَّمَاعِ هُنَا إِسْمَاعُ الْهَدَى، وَالْمَرَادُ بِالْهَدَى هَدَى الْهَدَى، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ صَوْتَكَ؛ لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَارَ الْإِسْمَاعُ هُنَا إِسْمَاعَ الْحَقِّ، وَالْمَرَادُ بِالْهَدَى الْهَدَى إِلَى الْحَقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ كَانَ يَنْدُمُ عَلَى عَدَمِ اهْتِدَاءِ النَّاسِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ لَهُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ إِلَى اللَّهِ، وَحَيْثُ تَهَوَّنُ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ وَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْكُفَّارَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الصَّمَمِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِأَنَّهُمْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَوْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْعُمَى سَبَبٌ لِأَن يَتِيَهُ الْإِنْسَانُ عَنِ الطَّرِيقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَهْدِي أَعْمَى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - أَيْ: مُنْعِمَسًا فِي الضَّلَالِ - فَإِنَّهُ لَا يَهْتَدِي فِي الْغَالِبِ.



الآية (٤١)

• • ❁ • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾﴾ [الزخرف: ٤١].

• • ❁ • •

(إِمَّا) يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِيهِ إِدْعَامُ نُونٍ (إِنْ) الشَّرْطِيَّةِ فِي (مَا) الزَّائِدَةِ] فَإِمَّا وَأَصْلُهُ، (فَإِنْ مَا)، لَكِنْ اجْتَمَعَتِ النُّونُ السَّاكِنَةُ مَعَ المِيمِ فَأُدْغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْأُخْرَى فَصَارَتْ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾.

وَقَوْلُهُ: [مَعَ (مَا) الزَّائِدَةِ] اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ، كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ فِي مُحَلِّهِ وَالسِّيَاقِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، لَكِنْ مُرَادُهُم بِالزِّيَادَةِ هِيَ الَّتِي يَتِمُّ الْكَلَامُ بِدُونِهَا، لَا الَّتِي يُمَكِّنُ الْكَلَامُ بِدُونِهَا، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ. يَعْنِي: لَوْ حُذِفَتْ لَا سِتْقَامَ الْكَلَامُ، وَإِلَّا فَإِنَّ لَهَا مَعْنَى، وَهُوَ التَّوَكُّيدُ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بِأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ] كَمَا قَالَ، يَعْنِي: أَنَّنَا إِنْ ذَهَبْنَا بِكَ، فَلَنْ نُغْفِلَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ نُعَذِّبُهُمْ.

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ: [فِي الْآخِرَةِ] فِيهِ نَظَرٌ، وَالصَّوَابُ فِي الدُّنْيَا يَعْنِي: أَنَّا إِنْ ذَهَبْنَا بِكَ قَبْلَ أَنْ نُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّا لَا بُدَّ أَنْ نُعَذِّبَهُمْ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَاضِحٌ لَهُؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

• • ❁ • •

الآية (٤٢)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ نُزِيتِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾

[الزخرف: ٤٢].

• • ❦ • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ نُزِيتِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ فِي حَيَاتِكَ مِنَ الْعَذَابِ
﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: عَلَى عَذَابِهِمْ ﴿مُّّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ].

فَالْمَسْأَلَةُ إِمَّا أَنْ نُعَذِّبَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ، فَإِنْ
مِتَّ قَبْلَ أَنْ نُعَذِّبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُفْلِتُوا مِنَ الْعَذَابِ سَنَتَقِمُ مِنْهُمْ، وَإِنْ عَذَّبْنَاهُمْ قَبْلَ
مَوْتِكَ فَإِنَّا قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَنْ نُؤَخِّرَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ عَجْزًا.

وَقَوْلُ الْمَفْسِّرِ: [﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: عَلَى عَذَابِهِمْ] الصَّوَابُ الْعُمُومُ عَلَى عَذَابِهِمْ
وَعَلَى ذَوَاتِهِمْ، وَعَلَى جَمِيعِ أَهْوَالِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: [﴿مُّّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ] أَيْضًا فِيهِ قُصُورٌ؛ لِأَنَّ الْمُقْتَدِرَ أَبْلَغُ مِنَ الْقَادِرِ،
فَإِنْ زِيَادَةُ الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْقَادِرِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ.

فَالْآيَةُ مَعْنَاهَا الْإِجْمَالِيُّ: أَنَّا إِنْ ذَهَبْنَا بِكَ لِلْمَوْتِ؛ فَإِنَّا لَنْ نُغْفِلَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ،
وَإِنْ عَذَّبْنَاهُمْ فِي حَيَاتِكَ؛ فَسَتَرَى عَذَابَهُمْ بِنَفْسِكَ.

من فوائد الآيتين الكریمتین (٤١ - ٤٢) :

الفائدة الأولى: التَّهْدِيدُ لِلْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَنَّ عَذَابَهُمْ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةَ.

الفائدة الثانية: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَاءَ بِالْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْآيَاتِ، فَإِذَا كُذِّبَ فَسَيَكُونُ ذَلِكَ ثَقِيلًا عَلَى نَفْسِهِ، فَسَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَذَا الْوَعِيدِ.

الفائدة الثالثة: وَصَفُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِنْتِقَامِ، كَمَا وَصَفَهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى.

وَلَكِنْ هَلْ يُوصَفُ بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَيُقَالُ مَثَلًا: الْمُتَنَقِّمُ؟

فالجواب: لَا، لِأَنَّ كَلِمَةَ الْمُتَنَقِّمِ لَيْسَتْ مَدْحًا فِي ذَاتِهَا حَتَّى تُقَابَلَ بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِلإِنْتِقَامِ؛ وَهَذَا تَمَرُّ بِنَا أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى الَّتِي عَدَّهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْهَا الْمُتَنَقِّمَ، وَهَذَا غَلَطٌ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ مُقَيَّدًا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ وَهُنَا ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ مُقَيَّدٌ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَهِيَ تَكْذِيبٌ هُوَ لَا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الفائدة الرابعة: عِظَمَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْجَمْعِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَرَادُ بِالْجَمْعِ التَّعَدُّدُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَكِنَّ الْمَرَادَ بِالْجَمْعِ هُنَا التَّعْظِيمُ.

الفائدة الخامسة: أَنَّ الْوَعْدَ يَأْتِي فِي الشَّرِّ وَالْعُقُوبَةِ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: الْوَعْدُ فِي الْخَيْرِ وَالْإِعَادُ فِي الشَّرِّ، وَأَنْشَدُوا عَلَى ذَلِكَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَإِنِّي إِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ
لُمُخْلِيفٍ إِيْعَادِي وَمُنْجِزٍ مَوْعِدِي^(١)

(١) البيت ينسب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب (١/ ٦٣).

فَالصَّوَابُ أَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، فَهُنَا قَالَ: ﴿الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾
وَعَلَى قِيَاسِ قَوْلِ الْبَيْتِ يَكُونُ التَّعْيِيرُ: الَّذِي أَوْعَدْنَاهُمْ، وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهَا جَائِزَةٌ
لهَذَا وَهَذَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ غَلَبَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى كُلِّ قُدْرَةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ﴾ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلَمَّا قَالَتْ عَادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فَلَا قُوَّةَ تُمَانِعُ قُوَّةَ اللَّهِ
عَزَّجَلَّ، وَلَا قُدْرَةَ تُمَانِعُ قُدْرَتَهُ، بَلْ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ.



الآية (٤٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[الزخرف: ٤٣].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ ﴾ بِمَعْنَى: تَمَسَّكْ، لَكِنْ زِيدَتْ حُرُوفُهَا لِلْمُبَالَغَةِ. أَيِ: تَمَسَّكْ تَمَسُّكًا قَوِيًّا ﴿ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ وَالْمُوحِي هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَالْمُوحَى الْقُرْآنُ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ لِيُثَبِّتَ رِسَالَتَهُ، وَإِلَّا لَوْ قَالَ بِالْقُرْآنِ كَفَى، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ تَثْبِيتِ الرِّسَالَةِ قَالَ: ﴿ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ وَالْوَحْيُ هُوَ إِنْبَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرُسُلِهِ بِمَا يُشَرِّعُهُ لِعِبَادِهِ.

﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَمْرٌ وَتَثْبِيتٌ، فَلَا مُرَّ: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ وَالتَّثْبِيتُ: ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، وَإِذَا كَانَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَحِيدَ عَنْهُ، بَلْ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِهِ تَمَامًا، وَالصِّرَاطُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْمُسْتَقِيمُ، فَالطَّرِيقُ الضَّيِّقُ لَا يُسَمَّى صِرَاطًا، وَالطَّرِيقُ الْمَعْوَجُّ يَمِينًا وَشِمَالًا لَا يُسَمَّى صِرَاطًا، لَا يُسَمَّى صِرَاطًا إِلَّا مَا كَانَ طَرِيقًا وَاسِعًا مُسْتَقِيمًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيِ: الطَّرِيقَ الْوَاسِعَ الْمُسْتَقِيمَ.

الآية (٤٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَلِإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

• • • • •

قَالَ المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلِإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ لَشَرَفٍ ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ بِنُزُولِهِ بُلُغَتِهِمْ ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ.

﴿وَلِإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ أَي: لَشَرَفٍ عَلَى مَا فَسَّرَهُ بِهِ المفسرُ. أَي: أَنَّكُمْ تَشْرَفُونَ بِهِ؛ لِنُزُولِهِ بُلُغَتَكُمْ؛ وَلَكُونِهِ نَزَلَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فَهُوَ شَرَفٌ.

هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المفسرُ وَلَا مَانِعَ مِنْهُ، لَكِنَّ الصَّوَابَ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ هُنَا التَّذْكِيرُ يَعْنِي: وَإِنَّ هَذَا الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَذْكِيرٍ لَكَ وَلِقَوْمِكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: يَرُدُّ عَلَى هَذَا أَنَّهُ تَذْكِيرٌ لِكُلِّ النَّاسِ.

فالجوابُ: أَنَّ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] مَعَ أَنَّهُ بُعِثَ لَجَمِيعِ النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ] وَمِنْ حَقِّهِ الْعَمَلُ بِهِ، وَمِنْ حَقِّهِ إِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا يُعْتَبَرُ الْعَرَبُ هُمْ الْإِشْعَاعَ لِعَامَّةِ النَّاسِ فِي نَقْلِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لَيْسَ فِي الْجَزِيرَةِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ إِلَّا عَرَبٌ، هُوَ لَا الْعَرَبُ

بُشُّوا الْإِسْلَامَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِنْ حَقِّهِ ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عَمَّا فِيهِ مِنْ
 الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ، هَلْ جَاهَدْتُمْ أَمْ لَا؟ ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عَنْ تَنْفِيذِ جَمِيعِ شَرَائِعِهِ؛ وَهَذَا
 كَلَامُ الْمَفْسِّرِ هُنَا جَيِّدٌ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ.



الآية (٤٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أَي: مَنْ غَيْرِهِ ﴿ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾] (اسْأَلِ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وَسَوْفَ يَكُونُ الْجَوَابُ: (لَا).

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ هُوَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، يَقُولُ لِلنَّبِيِّ: اسْأَلِ جَمِيعَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، هَلْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ حَتَّى يَقُومَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَيَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ.

فَفِيهِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُحِلُّ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ وَهُوَ لَمْ يُدْرِكْهُمْ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ إِنْ تَسْأَلَ عَلَى الْفَرَضِ وَالتَّخْيِيرِ فَلَنْ تُجَابَ بِ(نَعَمْ)، بَلْ سَيَكُونُ الْجَوَابُ: (لَا)، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّحْدِيدِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ.

وقوله: ﴿أَجْعَلْنَا﴾ أي: صَيَّرْنَا ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قيل: هو على ظاهره بأن جُمِعَ لَهُ الرُّسُلُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ. يَعْنِي: وَسَاءَ لَهُمْ، لَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْإِسْرَاءِ لَيْسَ فِيهَا هَذَا.

ثُمَّ إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْإِسْرَاءِ إِظْهَارُ شَرَفِ النَّبِيِّ ﷺ، بَلْ هَذَا مِنْ مَقْصُودِ الْإِسْرَاءِ، إِظْهَارُ شَرَفِهِ عَلَى الرُّسُلِ، فَكَيْفَ يُوجَّهُ إِلَيْهِمْ هَذَا السُّؤَالُ؟! فَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ جَدًّا وَلَا وَجْهَ لَهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَمَمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَهَذَا أَيْضًا لَيْسَ بِصَوَابٍ يَعْنِي: هُوَ لَا يَقُولُونَ: الْمَعْنَى ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ يَعْنِي: اسْأَلِ الْأَمَمَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ لَا يَقُونَ إِلَى بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا ضَعِيفٌ مُخَالَفٌ لظَاهِرِ الْقُرْآنِ، فَالْقُرْآنُ يَقُولُ: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ وَالْأَمَمُ التَّابِعَةُ لِلرُّسُلِ فِيهِمْ مُشْرِكُونَ، فَالْنَّصَارَى أَقْرَبُ الْأَمَمِ فِيهِمْ مُشْرِكُونَ، فَلَا يَتَوَجَّهُ سُؤْلُهُمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مُشْرِكِينَ، هَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَلَمْ يَسْأَلْ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ]؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ التَّقْرِيرُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ، أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا كِتَابٌ بِعِبَادَةٍ غَيْرِ اللَّهِ، هَذَا صَحِيحٌ، يَعْنِي: أَنَّ السُّؤَالَ إِنَّمَا أُريدَ بِهِ الْإِزَامُ قُرَيْشٍ بِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ بِإِبَاحَةِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، هَذَا الْمَقْصُودُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، لَكِنَّ هُنَا السُّؤَالُ فِيهَا أَعْمٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَلَمْ يُخَصَّ ذَلِكَ بِالرُّسُلِ.

من فوائد الآيات الكريمة (٤٣ - ٤٥):

الفائدة الأولى: حثُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِثُّ عَلَى ذَلِكَ فَنَحْنُ مِنْ بَابِ أُولَى.

الفائدة الثانية: أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا؛ لِإِثْبَاتِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ.

الفائدة الثالثة: تَثْبِيْتُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْاسْتِمْسَاكِ بِهَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ بَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الفائدة الرابعة: أَنَّ الشَّرِيعَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَلَا انْحِرَافَ.

الفائدة الخامسة: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِيهِ ذِكْرٌ لِلْعَرَبِ -أَي: شَرَفٌ لَهُمْ- وَفِيهِ تَذَكِيرٌ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

الفائدة السادسة: تَحْمِيلُ الْمَسْئُولِيَّةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى الْعَرَبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُسْأَلُونَ عَنْ هَذَا الْوَحْيِ هَلْ قَامُوا بِحَقِّهِ أَوْ لَمْ يَقُومُوا بِحَقِّهِ.

الفائدة السابعة: إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ الْكُبْرَى عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ: إِنَّ هُنَاكَ آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾.

الفائدة الثامنة: إِثْبَاتُ اسْمِ الرَّحْمَنِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ وَالرَّحْمَنُ هُوَ أَحَدُ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا يُسَمَّى بِهَا غَيْرُ اللَّهِ، وَهُمَا اللَّهُ وَالرَّحْمَنُ، لَا يُوصَفُ بِهَا سِوَى اللَّهِ، الرَّحِيمُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ، الْعَزِيزُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ، السَّمِيعُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَهَكَذَا، لَكِنَّ هَذَيْنِ الْأَسْمَاءِ الْكَرِيمَيْنِ -اللَّهُ وَالرَّحْمَنُ- لَا يُوصَفُ بِهَا أَحَدٌ، وَلَا يُسَمَّى بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ النَّاسِعَةُ: اتَّفَقَ الرُّسُلُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَهَذَا قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَالرُّسُلُ مَا جَاءَتْ إِلَّا لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ، وَالْخَلْقُ لَا يُمَكِّنُ صَلَاحُهُمْ وَلَا إِصْلَاحُهُمْ إِلَّا إِذَا قَامُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنْ لَمْ يَقُومُوا بِتَوْحِيدِهِ تَشَتَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَذْهَبُ مَذْهَبًا غَيْرَ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَعْبُودٌ خَاصٌّ، فَتَحْصُلُ الْفَوْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؛ حَصَلَ الْإِتِّفَاقُ بِدُونِ فَوْضَى.



وَبِذَلِكَ انْتَهَتْ الدُّرُوسُ الْعِلْمِيَّةُ الصَّبَاحِيَّةُ الْمُسَجَّلَةُ صَوْتِيًّا، وَالتِّي كَانَ يَعْقِدُهَا
فَضِيلَةُ شَيْخِنَا الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَامِعِهِ بِمَدِينَةِ عُنَيْزَةِ،
وَكَانَ آخِرَهَا يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ١٠ رَبِيعٍ الْآخِرِ عَامَ ١٤٢١ هـ.

رَحِمَ اللَّهُ شَيْخَنَا رَحْمَةً الْأَبْرَارِ، وَأَسْكَنَهُ فَيْسِيحَ جَنَاتِهِ، وَمَنْ عَلَى بَمَغْفِرَتِهِ
وَرِضْوَانِهِ، وَجَزَاهُ عَمَّا قَدَّمَهُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ
بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأنا الدروس الصباحية والمسائية في إجازة
عام ١٤٩١ هـ يوم السبت ١٥ ربيع الأول
وانتهينا يوم الأربعاء ١٠ ربيع الثاني فلما تمت مدة
الدراسة خمسة وعشرين يوماً فزجوا الله تعالى
أن يجعل فيك البركة .

ولما وقفنا في الدروس الصباحية :
في التفسير : عند قوله تعالى في سورة الزخرف (وقد
أرسلنا موسى بأياتنا) آية ٤٦
في الحديث : كتاب الزكاة .

وفي أصول الفقه : أثناء باب القياس عند الكلام
على الأصل ص ٤٦

وفي الفقه : كتاب النفقات .

وفي الخو : أكلنا الآجرومية .

وفي العقيدة : جعلناها مكان الآجرومية وقرأنا
(عقيدة أهل السنة) كاملاً

أما في المساء فقرأنا الأربعين
والمدرب العالمين

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
٩.....	«أَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ».....
١٠.....	«مَا لَمْ تَكُنْ جُنْبًا».....
١٩.....	«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».....
٢١.....	«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ».....
٣٤.....	«لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عَهْدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ، إِلَّا فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ».....
٣٤.....	«إِلَّا فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ».....
٣٧.....	«وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَهُ بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ».....
٤٧.....	«ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».....
٤٧.....	«فَلَيْسَتْ عِزٌّ بِاللَّهِ وَلَيْسَتْ».....
٥٠، ٤٩.....	«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».....
٥١.....	«أَنَّ أَهْلَ الْفِتْرَةِ يُرْسَلُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَمْتَحِنُهُمْ مَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ».....
٦٢.....	«مَنْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ».....
٧٧.....	«إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيهَا مَا رَأَيْتَنِي».....
٧٧.....	«لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ بِنْتُ نَبِيِّ اللَّهِ مَعَ بِنْتِ عَدُوِّ اللَّهِ».....

- ٧٩..... «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَيِّكَ»
- ٨٠..... «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»
- ٨٤..... «اَكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»
- ٨٨، ٨٧..... «لَنْ يَفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»
- ٨٨..... «كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ...»
- ٨٩..... «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ...»
- ١٠١..... «أَحْذِ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»
- «أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي مِنْهَا: وَكَانَ النَّبِيُّ يُعِثُّ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً،
وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»
- ١١٢.....
- ١٢١..... «يَا عَمَّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةٌ أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»
- ١٢٦..... «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»
- «أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ»
- ١٣٣، ١٣٤.....
- «وَاللَّهُ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا
تَنَافَسَهَا مِنْ قَبْلُكُمْ، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»
- ١٣٧.....
- ١٤٤..... «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»
- ١٤٦..... «لَبَيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ»
- «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ»
- ١٤٩.....
- ١٥٢..... «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ»
- ١٥٦..... «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُخْذِيكَ»

فهرس الفوائد

الصفحة	الفوائد
٧.....	مَرَاتِبُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.....
٧.....	لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُفَسِّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ.....
٨.....	عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.....
٩.....	الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَهُ خَصَائِصٌ كَثِيرَةٌ.....
١٠.....	قِرَاءَةُ الْحَائِضِ الْقُرْآنِ.....
١٦.....	الرَّدُّ عَلَى مَا كُتِبَ فِي الإِعْجَازِ الْعَدَدِيِّ فِي الْقُرْآنِ.....
٢٣.....	الْبِسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.....
٢٨.....	اللُّسَانُ الْعَرَبِيُّ لَمْ تُوَضَّعْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ لَهَا مَعْنَى.....
٢٨.....	مَا الْفَائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْهِجَائِيَّةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؟.....
٣٨.....	هَلْ يَجُوزُ وَصْفُ الْقُرْآنِ بِالْحُدُوثِ؟.....
٣٩.....	هَلْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ؟.....
٥٠.....	هَلْ يُشْتَرَطُ مَعَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَفْهَمَهَا الْمُخَاطَبُ؟.....
٥٦.....	مَنْ اسْتَهْزَأَ بِاللَّهِ أَوْ آيَاتِهِ أَوْ رَسُولِهِ، أَوْ سَبَّ اللَّهَ أَوْ كَتَبَهُ أَوْ رَسُولَهُ، هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ أَوْ لَا تُقْبَلُ؟.....
٥٧.....	مَا حُكْمُ الْمُسْتَهْزِئِ بِأَهْلِ الدِّينِ؟.....
٥٩.....	فَائِدَةُ الْإِحَالَاتِ تَذَكِيرُ الْإِنْسَانِ مَا سَبَقَ، وَاهْتِمَامُهُ بِالْكِتَابِ، وَرَوَاجُ الْكِتَابِ كُلِّهِ.....

- ٦١ معاني العِزَّة ثلاثة
- دُعَاءُ نُزُولِ الْمَكَانِ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» هَلْ خَاصٌّ
 ٧٥ بالسَّفَرِ أَوْ عَامٌّ؟
- الَّذِينَ يُجَادِلُونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ يَأْتُونَ بِأَدِلَّةٍ مُتَّبَاعَةٍ مُتَكَاثِرَةٍ مَعَ أَنَّ الْمَدْلُولَ يُمَكِّنُ أَنْ
 ٩٧ يَثْبُتَ بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ
- لَا مَجَازَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِطْلَاقًا، وَلَا فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا ١٠٠
- بَعْضُ النَّاسِ حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ عَمَّا أَرَادَ اللَّهُ؛ بِنَاءٍ عَلَى هَوَاهُ، فَقَالَ: أَبُو إِبْرَاهِيمَ لَيْسَ
 ١١٤ مُشْرِكًا، بَلْ هُوَ عَلَى التَّوْحِيدِ
- الْهِدَايَةُ نَوْعَانِ ١٢٠
- هَلْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ اهْدِنِي هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ». يُعَيِّنُ هِدَايَةَ مُعَيَّنَةٍ؟ .. ١٢٢
- قَوْلُ الْمَفْسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أَيُّ: أَنَّهُ الْجَنَّةُ، هَلْ هَذَا مِنْ تَأْوِيلِهِ؟ ١٣٣
- قِصَّةُ ابْنِ حَبْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ الْيَهُودِيِّ ١٤٤
- إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ مُنْحَرِفٌ يَظُنُّ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَهُ رَبُّهَا يَدْعُوهُ، هَلْ
 ١٤٩ يُصَاحِبُهُ أَوْ يُصَادِقُهُ؟
- هَلْ يُوصَفُ اللَّهُ بِالْإِنْتِقَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَيُقَالُ مَثَلًا: الْمُتَقِمُّ؟ ١٦٣



فهرس آيات السورة

الآية		الصفحة
تقديم		٥
سورة الزخرف		٧
البسملة		٢٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَمَّ ١﴾		٢٧
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ ٢﴾		٣٠
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾		٣٢
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ٤﴾		٤٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥﴾		٤٨
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦﴾		٥٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧﴾		٥٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾		٥٨
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾		٦٠
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠﴾		٦٤

- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١) ٦٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) ٧٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ٧٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنسَانِ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ٧٧
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ أَلْخَذَ مِنَّا بَخْلًا بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) ٨١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ﴾ (١٧) ٨٣
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) ٨٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا أَلَمَّتِيكَهَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ (١٩) ٩٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) ٩٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ أَمْسَتْهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١) ٩٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) ٩٩
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرُوها

- إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ١٠٤
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أُولُو حِشَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ ١٠٧
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ١١٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ١١٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ١١٨
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ١٢٣
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ ١٢٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ١٢٨
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ١٣٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ١٣٨
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّوْنَ ﴿٣٤﴾ ١٤٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ
- عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ١٤٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالِ يَلَيْتَ بَنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَسْرِقَيْنِ فَيَنسَ الْفَرِيقُ ﴿٣٨﴾ ١٤٧

- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَفْعَلَكَ يَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩﴾ ١٥٧
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٤٠﴾ ١٥٩
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا نَذْهَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ٤١﴾ ١٦١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ نُزِيلَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقَدِّرُونَ ٤٢﴾ ١٦٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَسْمِسْكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤٣﴾ .. ١٦٥
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ٤٤﴾ ١٦٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَقُلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ٤٥﴾ ١٦٨
- فهرس الأحاديث والآثار ١٧٥
- فهرس الفوائد ١٧٧
- فهرس آيات السورة ١٧٩

